لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤ م

مبادئ الفلسفة

ألفه

ا . س . رابوبرت

دكتور فى الفلسفة

وترجمه من الانجليزية الى العربية

أحمد أمين

مدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

[الطبعة الثالثة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٨

لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

مبادئ الفلسفة

ألفه

ا . س . رابوبرت (.)

دكتور فى الفلسفة

وترجمه من الانجليزية الى العربية

أحمد أمين

مدرّس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

[الطبعة الثالثة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٨

فهـــرس الكتاب

صـفحة

الكتاب الأول — فى الفلسفة وفروعها

الكتاب الثانى — فى مسائل الفلسفة ومذاهبها

*

مقدّمة المترجم للطبعة الأولى



الحمــد لله رب العالمين والصلاة والسلام على ســيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

أتى على العرب حين من الدهر كانت لغتهم تكفى لحاجاتهم . فلهم منها أسماء ما يأكلون وما يشربون وما يلبسون وما يفكرون ، فان لم يجدوا نقــلوا عن غيرهم أو خلقوا خلقا جديدا ، ساروا مع زمانهــم فى تشريعهم وفى علومهم وفى لسانهــم وفى نظمهم، ان أحسوا أن أمة سبقتهم فى علم أنفوا أن يروا لغتهم عاطلة من حليه، فأسرعوا فى ترجمته، وسدّوا نقصا شعروا به، وان رأوا معنى جديدا أو مخترعا جديدا وضعوا له لفظا جديدا وأدخلوه فى معاجمهم وذكره العلماء فى كتبهم، وان أنتجت حالتهم الاجتماعية أنواعا من المعاملات جديدة وانماطا من الجــرائم لم يكونوا يعرفونها شرعوا لهــا تشريعا جديدا يتفق مع الحوادث وقالوا كما قال عمر بن عبد العزيز «يحدث للناس من الأقضية بقدر ما يحدث لهم من الفجور» وكما قال زياد

« وقد أحدثتم أحداثا لم تكن وقــد أحدثنا لكل ذنب عقوبة »
فكانوا والزمان فرسى رهان يعدوان جنبا لجنب ، علما منهــم بأن
لانجاح لأمة فى الحياة مالم تُعَدِّل حياتها على وفق ما يحيط بها .

ثم وقفوا واستمر الزمن يعدو، وكلما طال وقوفهم زاد البعد ،
وبعدت مسافة الخلف، — وقفوا سبعة قرون أو تزيد، تغير فيها
مفهوم الكلمات، وزادت المعــانى والمخترعات، ولا تزال معاجم
لغتهم ممــا وضع منذ قرون ، أمثال قاموس « الفــيروزابادى »
و« لسان العــرب » ممــا ألف لزمن غير زمانهــم ، فى موقف غير
موقفهم، والأمم الحية لا ترضى أن يكون لها فى نصف قرنها الحالى
معجم أُلِّفَ فى نصف قرنها المــاضى .

اختلفت أنواع المعيشة وأصبح بعض ما كان يعدّ حسنا قبيحا
والعكس . وتغيرت أشكال المعاملات، وهم أمام ذلك جامدون .
اخترعت علوم جديدة ، وأبطلت نظريات قديمــة واستكشفت
قضايا وقوانين غيرت وجه العــلم وحوّلت مجرى الحياة وهم يأبون
إلا أن تكــون الكتب كتب الأقدمين والنظريات نظــريات
الأقدمين، والرأى رأى الأقدمين . نعم ينبغى أن ننظر فى القديم،
ولكن ليس إلا لنتخذ منه دعامة للجديد .

فمــا أحوجنا الى نهضة تنبهنا من سباتنا العميق، وتغير مجرى
حياتنا، وتفتح عيوننا للبحث والنظــر، وتطلق الفكر من عنانه ،

فيبحث و يعتقــد ما يراه الحق ، وتمدّنا بمـا وصل اليه الغـرب فنسـتأنس ببحثه ، ونستعين به على وضع ما يتفق مع بيئتنا ودينا ونظمنا الاجتماعية وحالتنا العقلية .

وقد عثرت على كتاب فى « مبادئ الفلسفة » قســمه المؤلف الى قسمين : أبان فى القسم الأوّل منه موضوع الفلسفة وفروعها ، وذكر كلمة عن كل فرع ، وختمه بفصل فى تاريخ الفلســفة من مبدأ نشأتها الى الآن — وذكر فى القسم الثانى النظريات الفلسفية المعروضة على بساط البحث وحكى باختصار المذاهب المختلفة فيها .

والكتاب يقدّم للقارئ صورة مصغرة للآراء الفلسفية قديمها والحديث ، ويحدّد معنى «الفلسفة» وموضوعها ، تلك الكلمة التى يكاد يختلف الناس عندنا فى فهم معانيها بقـدر عدد رءوسهم — ولم يأل جهدا فى تبسيط الموضوع والتغلب على صعوباته ، ليكون سهل التناول لجمهور المتعلمين .

رأيت أن أنقله الى العربية ، وأغرانى على ذلك صغر حجمه ، وطرافة موضوعه عند قرّاء العربية ، وبذل المؤلف جهده لتسهيل الموضوع . حتى اذا بدأت فى ترجمته أحسست بصعوبته . وقد لا يعـلم قدر ما لاقيت من عناء إلا من حاول ترجمـة كتاب كهذا فى موضوع دقيق قد ملئ بالاصطلاحات الفنيــة ثم لا يجد لهـا مقابلا فى العربية .

راعيت الأمانة فى النقل جهد المستطاع فحافظت على ترتيب المؤلف ومعانيه وتسلسلها ولم أتصرف إلا عند الضرورة القصوى، وقد استعملت فى الترجمـة الاصطلاحات العربية ما وجدت الى ذلك سبيلا، فان لم أعثر بعـد البحث على صطلاح عربى يقابل الاصطلاح الانجليزى وضعت كلمة من عندى رأيت أنهـا أقرب للدلالة على المعنى .

ولست أنـكر أن فى بعض ما ترجمت غموضا وأرجو ألا يكون كثيرا وسبب ذلك إما صـعوبة الموضوع وغموض الاصـل ، أو التغالى فى المحافظـة على معانى المؤلف ، أو أن الاصطلاحات التى استعملتها لم تُؤْلَف إِلْفَها فى لغة الأصل .

وقد رأيت أن المؤلف لم يذكر كلمة ما عن الفلسفة العربيـة وتاريخها فرأيت اتمـاما للفائدة أن أذكر كلمة فى ذلك أقرنها بمـا كتبه المؤلف عن تاريخ الفلسفة . ووضعت على ما كتب المؤلف كلمات فى ذيل الصحيفة قد أشرح بها غامضا أو أبين مصطلحا .

وذيلت الكتاب بترجمة صغيرة لأشهر من ورد ذكرهم فى الكتاب أبين فيها جنسه وتاريخ حياته وربما ذكرت بعض مبادئه وختمت ذلك بقائمة للألفاظ الانجليزية وما يقابلها من العربية .

وهنا أتقـدم بالشكر للجنتنا المباركة « لجنة التأليف والترجمـة والنشر » على ما بذلت من المساعدة فى اخراج الكتاب وأخص

بالذكر صديقى أمين افندى مرسى قنديل وعبدالحميد افندى العبادى فاليهما يرجع الفضل فى مراجعـة الكتاب وتنقيحه وارشادى الى ما غمض من معانيه .

وانى أشكر كل من يتنبه لخطأ فى الكتاب فيرشدنى اليه ، والله أسأل أن ينفع به و يجعله طليعة كتب واسعة تظهر فى هذا الموضوع النـافع ما

أحمد أمين

مايو ســـنة ١٩١٨

مقـــدّمة المؤلف

الغرض من هـذا الكتاب أن يكون بين أيدى المبتدئين فى الفلسفة شـبه دليل مدرسى يقفون منـه على مسائل الفلســفة وما وضع لهـا من حل ، وقد كان مجرّد عرض المسائل الفلسفية أهم فى نظرى من مراعاة تاريخها ، ولكن لمـا كان تتابع المذاهب فى المسائل متمشيا مع تدرّج الفكر فى الرقى صار من الطبيعى مراعاة الترتيب الزمنى لأقسام الموضوع .

وبالضرورة قد اكتفينا فى هذا الموجز الذى يستغرق أقل من ١٢٨ صفحة بمجرّد ذكر كثير من المسائل يمكن أن تبسط فى رسائل خاصــة ، غير أنا نرجو أن نكون قد ذكرنا كل ما هو ضرورى فى كتاب كهذا يعدّ « مقدّمة للفلســفة » يجمع الى صغر الحجم ودقة العبارة الوضوح والإلمـام بأطراف الموضوع ، هذا مع الاخلاص للحق وهو آخر دروس الفلسفة وخيرها ".

فبراير ســـنة ١٩٠٤ ا . س . ر

الكتاب الأول

فى الفلسفة وفروعها

الفصل الأول

تمهيد في معنى الفلسفة وفروعها

شاع بين الناس أن الفلسفة موضوع لا تتناوله إلا عقول خاصة، وأنها لا تلذ إلا لقوم نظريين لم يروا فى الحياة خيراً من أن يجهدوا عقولهم فى حل مسائل هى الى الخيال أقرب منها الى الحقيقة، وأنها تبحث فى خيالات عقيمة لا ينبنى عليها فى الحياة عمل — وأنهم فى زعمهم لمخطئون .

لم يرفع الانسان عن مستوى الحيوان إلا فكره وقوّته العاقلة، فالحيوان يرى ويسمع بل ويتذكر، ولكنه لا يستخدم هذه القوى إلا فى حاجاته الوقتية . أما الانسان فيرى ظواهر الكون على اختلاف أنواعها فيتصوّرها ويكوّن له فيها رأياً، ثم يجتهد فى تعرف عللها وعلاقة حقائق الكون بظواهره . وهذا طريق فهم الشيء فهمًا واضحًا، فان فعل هذا قلنا أنه يتفلسف، ولا نعنى بهذه الكلمة إلا أنه يفكر فى شيء خاص — ذاتاً كان أو معنى — ويحاول الاجابة على هذه الأسئلة : (١) ما هذا الشيء الذى يبحث فيه عقلنا ؟ (٢) ما أصله ؟ (٣) ما علاقته بغيره من الذوات أو المعانى ؟

وبعبارة أخرى معنى « يتفلسف » أنه يبحث فى ماهية الأشياء وأصولها وعلاقة بعضها ببعض . وليس يخلو انسان من هذا العمل وقتا ما ، فساغ لنا أن نقول أن كل انسان متوسط الفكر يتفلسف ، وأن كل الناس فيلسوف الى حدّ ما ، مع تفاوت فيما بينهم ، إلا من استعبدته شهوته وانغمس فى اللذائذ المادّية — إلا أن كلمة «فيلسوف» اذا استعملت بدقة لا تطلق على من ينظر الى الشيء أحياناً فيتأمله ويفحصه أو يشك فيه ثم يرى فيه رأياً يعتقده ويتمسك به . بل كما أنا لا نسمى زَجَّاجًا ولا قَفَّالا من أصلح فى بيته لوح زجاج كسر ، أو عالج قفلا فسد ، انما الزجاج أو القفال من اتخذ ذلك العمل حرفة فى حياته ، ولم يقتصر على التعليم الصحيح بل أكسبته المثابرة على العمل مرانة وبراعة ، وعرف كيف يصل الى نتيجة خير مما يصل اليها غير المتمرّن بجهد أقل من جهده ، فكذلك لا نسمى فيلسوفا إلا من كان أهم أغراضه فى حياته درس طبائع الأشياء وتعقلها ، وعُدّته فى ذلك فكره ، وكان له بمزاولة ذلك قدرة على إدراك الأشياء بسرعة ، وكما أن الصناع على اختلاف أنواعهم يعرفون دقائق عملهم ، وان شئت فقل ينبغى أن يعرفوا ذلك ، وأن يكونوا على علم بأحدث ما اخترع مما يتعلق بعملهم ، كذلك الفيلسوف المتخصص للفلسفة يجب أن يعرف ما وصل اليه من قبله ، وما قالوه فى المسائل التى تشغل فكره .

ولكن ما الحامل على التفلسف؟ وماذا نجنى من ورائه؟ يقول أرسطاليس «ان الدهشة أول باعث على الفلسفة». برز الانسان الى هذا الوجود فرأى نفسه فى عالم مختلف فى ظواهره، وواجهه الزمان بصروفه فراعه ذلك واستخرج منه العجب، فبدأ يسأل لماذا؟ ومن أين؟ والى أين؟ رأى هذا العالم أمامه لغزًا فحاول حله وتلك المحاولة هى الفسلفة . وقد كان أول حامل له على حله ما يرجوه من المنفعة من وراء ذلك . ولهذا قيل أن المصريين هم واضعو أساس علم الهندسة لمـّا ألجأتهم الحاجة الى تحديد ما يمتلكه الأفراد أثر فيضان النيل السنوى . وقبائل البدو من الكلدانيين نظروا فى النجوم ليهتدوا بها فى السير بقطعانهم . وعلى الجملة فقد حاول الانسان كشف معميات الحياة ليكون أقدر على تحصيل مصالحه ورعايتها، جسمانية كانت أو روحية . وقد ظل العقل الانسانى يتلمس السبيل للوصول الى فهم العالم والحياة فهمًا جليًا ثابتًا صادقًا، ويحل ما يعترضه من ألغازهما . وتنوعت أمامه المسائل، فمن أرض ذات فِجَاج ، الى سماء ذات أبراج ، زينت بالنجوم للناظرين . فما أكثر متناول العقل وما أوسع بيداء الجهل حيث يجوب العقل البشرى فيها يرتاد « واحة » ويجدّ فى البحث لينفذ الى أسرار الطبيعة ينشرها بين الناس لينتفعوا بها — وبينا هو يتطلب معرفة الأشياء فرارًا من الجهل اذ انبعثت فيه رغبة فى المعرفة

نفسها ، وصار يتطلب المعرفة للمعرفة، لا قصدًا للفائدة العملية .
والانسان مفطور على حب الاستطلاع وهذه الرغبة المتأصلة في أعماق نفسه لا تُستأصل ، وهي دافع قوى يقوى بنمو العقل ويحمل على تطلب معرفة الحقائق الكبرى الأساسية لهذا الوجود وتلك الحياة، وعلى البحث فى علل الأشياء وعلاقة بعضها ببعض، وهذا مادعا الانسان أن يتفلسف . أحس من نفسه الجهل بالشيء فشكَّ فنظرَ ففكرَ فاعتقد الحق فيما رأى ، وليس ما يعتقده الانسان بعد البحث حقًّا مقصورا على التأمل العقيم ، بل غاية هذا التأمل أن يُستخدَم فى الحياة العملية، فالفلسفة اذًا شوق وجِدٌّ وراء معرفة الأسباب الخفية للأشياء ، للتوفيق بين آرائنا وأعمالنا ، وهـذا هو قصدنا فى الحياة ، فليس ثمت غرض إلا الفرار من الجهل ، والوقوف على الحق، وكشف النقاب عن باطل تَقَنَّعَ بحجاب سخيف يوهم أنه حق .

وأصل كلمة فلسفة وتاريخها يدلان على ما ذكرنا، فقد روى المؤرخ اليونانى «هِيرودُوت» أن «كْرِيسُس» قال «لسولُون» : « لقـد سمعت أنك جُبْتَ كثيرًا من البلدان متفلسفا » أى متطلبًا للمعرفة . واستعمل « بِرِكْلِيس » كلمة « الفلسفة » يريد بها « الجدّ وراء التهذب» ومهما يكن من شيء فمنشأ الكلمة يشعر بالاعتراف بالجهل والشوق الى المعرفة قال « فِيثَاغُورس » والأصح نسبته الى

سقراط «الحكمة لله وحده وانما للانسان أن يجدّ ليعرف، وفى استطاعته أن يكون محبًا للحكمة تَوّاقا الى المعرفة باحثًا عن الحقيقة» وهـذا ما يدل عليـه اشتقاق كلمتى فلسفة وفيلسوف فانهما مأخوذتان من «فِيلُوس» ومعناها «محب» و «سُوفْيَا» ومعناها «الحكمة» فمعنى فيلسوف محب الحكمة ومعنى «سوفوس» الحكيم — وقد كانت كلمة «سوفوس» فى الأصل تطلق على كل من كمل فى شىء عقليًا كان أو ماديا فأطلقوها على الموسـيقى والطاهى والبَحّار والنَّجار، ثم قصرت بعـد على من منح عقلا راقيًا، فلما جاء سـقراط سمى نفســه فيلسوفًا أى محبًا للحكمة تواضعًا وتمييزًا له عن السوفسطائيين (المتجرين بالحكمة) الذين يطوفون البلاد يعرضون على الناس ما عرفوه بالثمن، كما يفعل بعض الباعة، وما كان المشترون ليشتروها أيضا إلا رغبة فى الفائدة العملية .

فالفلسفة اذًا تبحث عن كل مسألة يمكن البحث فيهـا ، وان شئت فقل عن العالم . ونحن نقسم مسائلها الى ثلاثة أنواع تبعًا لموضوع البحث :

١ — مسألة الوحدة، أعنى علة العلل القادرة على كل شىء الخالقة لكل شىء ، مفيضة الحياة على العالم . وهذا القسم يسمى ما بعد الطبيعة أو ما وراء المـادة .

٢ — مسألة الكثرة، أعنى مظاهر هذا العالم المتنوعة وهذا النوع يسمى «الفلسفة الطبيعية» .

٣ — مسألة أفراد المخلوقات التى أهمها لنا الانسان[١]، ويشمل هذا النوع ما يأتى : علم النفس أى علم الحياة العقلية للانسان ويبحث فى : (أ) الطرق التى يتبعها العقل للوصول الى نتيجة صحيحة، وهذا يسمى المنطق، وغايته ترقية فكرة الحق (ب) فى العاطفة وهذا هو علم الجمال، وغايته ترقية فكرة الجمال. (ج) فى الرغبة أو الميل وهذا موضوع علم الأخلاق، وهو يدور حول فكرة الخير .

قال الأستاذ سلِى : «أن تحليل الادراك أساس علم المنطق، وهو يقصد الى وضع قواعد بها نعرف أن نفكر أو نستنتج استنتاجًا صحيحا، وتحليل الشعور أساس علم الجمال، وهو علمٌ الغرض منه الاهتداء الى مقياس صحيح يقاس به الجميل وما يستحق الاعجاب» .

ولما كان سلوك الانسان قد نُظِّم ببيان ما يجب وما لا يجب قصدًا للوصول الى الخير وكان بيان هذه الواجبات قد مهد السبيل

---

(١) ويسمى العلم الذى يبحث فى الانسان من حيث وجوده ورقيه ومن حيث جسمه وروحه أنثروبولوجيا أى علم الانسان، وما يبحث فى الجسم فقط يسمى «فسيولوجيا» أو علم وظائف الأعضاء، وما يبحث فى العقل يسمى «بسيكولوجيا» أو علم النفس .

للقانون، والقانون إما طبيعي و إما وضعي، كان لنا من ذلك فلسفة تسمى «فلسفة القانون» وهناك مسائل تدور حول البحث في علاقة الأشخاص بعضهم ببعض تُكَوّن علمًا خاصًا يسمى «علم الاجتماع» وهذا يشمل أيضًا فلسفة التاريخ .

فموضوعات الفلسفة اذا ما يأتي :

(١) ما بعد الطبيعة .
(٢) فلسفة الطبيعة .
(٣) علم النفس[١] .
(٤) « المنطق .
(٥) علم الجمال .
(٦) « الأخلاق .
(٧) فلسفة القانون .
(٨) علم الاجتماع وفلسفة التاريخ

الفصل الثاني

ما بعد الطبيعة أو ما وراء المادة

١ — يمكن أن ينظر الى هذا العالم بكل مظاهره نظرا علميا من جهتين مختلفتين : إحداهما النظر اليه وفحصه من حيث أشكاله التي يتجلى لنا فيها، وعليها تقع حواسنا، مغفلين البحث عن علله

(١) يؤخذ على المؤلف أنه استعمل فيما مضى كلمة علم لنفس وقسمها الى منطق وجمال وأخلاق وجعلها هنا قسيما لهذه العلوم (المعرّب) .

المجهولة التى لا يمكن أن تعرف — والجهة الأخرى النظر فى روح هذه الظواهر من غير أن نلحظ تأثيرها فى حواسنا — فالجهة الأولى موضوع العلوم الوضعية، والأخرى موضوع ما بعد الطبيعة .

لكل علم مدركات، كعدّة له وآلات، لا يبحث هذا العلم فى قيمتها، وانما يجدها مهيأة من قبل فيستخدمها فى أغراضه، ويكتفى بها، فهى موجودة وكفى، مثل المكان والزمان والكم والكيف والعلة والمعلول والحركة والقوة والهيولى والصورة[1] وهى مدركات توصف بها الموجودات — رأت العلوم أن علة الحقيقة ليست إلا حقيقة أخرى، وأن سبب الحركة ليس إلا حركة أخرى، فسبب الصوت مثلا حركة الهواء، وليس ذلك السبب إلا حالة أخرى، جاء العلماء فبحثوا فى الظواهر المتنوعة (كل فى فرعه الخاص) ونظروا فى أشكال المادة وتغيراتها كما يتراءى لهم ولم ينظروا فى ما هى المادة ولا لم كانت كذلك، وانما وجهوا كل همتهم نحو معرفة كيفيتها، فكانت دائرة علمهم مقصورة على الأشياء المتناهية والتى أساسها التجربة والاختبار — لم تقنع بهذا نفس الانسان — وهى الشغوفة بالبحث والاستقصاء — فرأت أن هذه المظاهر الزائلة للحياة المادّية لا تقوم بنفسها، وانما يجب أن تكون وراءها

(١) الهيولى كلمة مأخوذة عن اليونانية ومعناها مادة الشىء وجوهره، وما تشكل به هذه المادة يسمى صورة، ففى القطعة من الخشب مثلا مادة الخشب هيولى وشكلها صورة (المعرّب) .

قوة خفية أزلية أبدية، هي للعالم كارادتنا فينا، عند ما نعمل عملا أو تحرّك بارادتنا حركة، شيء مطلق لا يحدّه حدّ وليست له نهاية، هو علة الموجودات، وهو الذى تسميه لغة الدين «الله» — لهذا كانت الحاجة ماسة الى علم يبحث عن هذه المدركات المتقدّمة التى تنتفع بها العلوم الأخرى ولا ترى أنها فى حاجة الى الشرح، وهذا العلم هو «ما بعد الطبيعة»، وهو لا يبحث عن حقائق العالم المادّى كما يتجلى لحواسنا، وانما يبحث فى الحواس من حيث مقدار الثقة بادراكها، كما يبحث عن ماهية الأشياء وعلة العلل، لا يكتفى بالحقائق حسب ما يوضحها الحس المشترك وحده، بل يتطلب الشيء المجهول الذى قامت عليه العلوم الأخرى من غير أن تبحث فيه، فهذا العلم غرضه الوصول الى ما وراء هذه الظواهر الطبيعية، غير قانع بمعرفة الأشياء التى قد تظهر لنا على غير حقيقتها.

ان شئت فقل ان هذا العلم يحاول أن يقف على المحرّك الخفى لهذا العالم، ويتوق الى أن يخترق هذا العَمَاء ليحُس بنبضه.

وان هذا الشوق لادراك هذه القوّة الخفية المجهولة الذى أفضى بالسُّذَّج الى الخرافات والأوهام هو الذى حمل الفلاسفة على البحث عما وراء الطبيعة، فعلم ما بعد الطبيعة هو علم «واجب الوجود». علم يبحث عن العلة الأولى للأشياء. وهو فرع من الفلسفة ينظر فى أوسع المسائل مجالا للبحث الفلسفى.

٢ — وهل علم ما بعد الطبيعة سينال غرضه يوماً ما، أو سيظل صاغراً متسولاً أمام ساحة تلك القوة الخفية الكبرى، لا يستطيع أن يطأ حماها، عاجزاً إلا عن تخيل ما فيها، محارباً للصعاب التي تعترضه فى سبيل كشف النقاب عن ألغاز هذا العالم الكثيرة ؟ وهل يستطيع العقل البشرى أن يحل هذه المسائل حلا مرضياً، أو سيظهر له أن البحث فيها بحث فى مستحيل؟ كل هذه الأسئلة كانت ولا تزال عبئاً ثقيلا على العلم والفلسفة، ولقد قيل: "ان علم ما بعد الطبيعة والشعر الرفيع السامى يلتقيان فيمتزجان، وان عالِمَ ما بعد الطبيعة عالِمٌ درج فى غير عُشه، يبحثه عن شىء فوق الحقائق، فاذا هو شاعر" وقال فُولْتير: "ان عِلْم ما بعد الطبيعة بستان يرتاض فيه العقل، وأنه لألذ من علم الهندسة، فلا نعانى فيه ما نعانيه فيها من الحساب والقياس، بل فيه نحلُم حلماً لذيذاً".

وقال «بَكْل» فى كتابه «المدنية فى انجلترا» — "ان كل باحث فى علم ما بعد الطبيعة انما يبحث أعمال عقله، ولم يكن من وراء ذلك البحث استكشاف فى أى فرع من فروع العلم" وقال «بخْنَر» مؤلف كتاب «القوة والمادة» فى أحد مؤلفاته الأخيرة المسمى «بجانبِ قَرْن يُحْتَضَر» : "بينا نرى علم النفس والمنطق والجمال والأخلاق وفلسفة القانون وتاريخ الفلسفة تستحق البقاء،

و ينبغى أن يدرسها العقل البشرى ، اذ نرى ما بعـد الطبيعة علماً مستحيلا ، وراء الطبيعة ، و وراء حواسنا ، فيجب أن يُترك بمَضيعَة ، و يُعَدّ من سَقَط المتاع " .

٣ — وقد كان البحث فى قضايا هذا العلم سابقاً لاسمه ففى قضاياه بحث الأَيُونيُّون (١) ، وفيها بحث كذلك أفلاطون وسمى هذه الابحاث «الجَدَلِيَّات» أو علم الكلام ، واسم العلم يدل على أنه يبحث فيما وراء الطبيعة ، وقد جمع أصحاب أرسطو وتلاميذه أبحاثه المتعلقة بأصل الأشياء والتى تسمى «الفلسفة المبدئية» ووضعوها بعد أبحاثه المتعلقة بالطبيعيات ، ومن هذا نشأ اسم ما بعد الطبيعة عَلَماً على ذلك العِلْم — ولم يكن الحدّ لفاصل بين مسائل الطبيعة وما بعد الطبيعة واضحاً جلياً فى الفلسفة اليونانية ، فقد أطلق اليونان اسم الطبيعيات على ما نسميه اليوم ما وراء الطبيعـة ، ومن ذلك العهد الى الآن سمى هـذا العلم بأسماء شتى فسماه « وُلْف » الفيلسوف الألمـانى أُنْتُولُوجْيا أو « علم الموجود حقاً » تميزاً له عن الظواهر التى تدرك بالحواس وبحث « اِدْوَرْدْ هَرْتْمَان » فى مسائل هذا العلم وسماها «مالا يُحَس» ، وكان « كَانْتْ» يقول « ان عقل الانسان مركب تركيباً يؤسـف له ، فانه مع شغفه بالبحث فى مسـائل

(١) الأيونيون طائفة من فلاسفة الأغريق الأولين اشتغلوا بدرس الطبيعة مثل طاليس وهى نسبة الى أيونيـا وهى الجزء الأوسط من شواطئ آسيا لصغرى الغربية (المعرّب) .

لا تدركها حواسنا لم يستطع أن يكشف مُعَمَّيَاتها » لذلك نصح في كتابه المسمى (نقد العقل المجرّد) بنقد عقولنا وقوانا قبل أن ننقد نظريات هذا العلم . أما في انجلترا أرض الذوق الفطري[1] فلم ينل هذا العلم حظاً وافراً، ولم يشتغل به منهم إلا القليل أشهرهم « بِرْكلي » .

وستتعرّض في فصل تال لذكر مسائل هذا العلم والمذاهب التي قامت حولها .

الفصل الثالث

الفلسفة الطبيعية

---

١ — ان موضوع بحث الإنسان إما أن يكون هو الطبيعة بأضيق معانيها ، ونعني بها مجموعة الأشياء المرئيّة المدلول عليها بكلمة « العالَم » وأما « العقل » ونعني به القوة التي بها ندرك ونعلم، ونتأمل ذلك العالَم ، وقد شوهد أن ما تقع عليها حواسنا أكثر استرعاءً لنظرنا من المدركات العقلية المجرّدة، فان الأخيرة نتيجة تأمل ناضج ، لا يكون إلا متى كان للعقل قدرة على التأمل

---

(١) نعني بالذوق الفطري الذوق الذي يشترك فيه الناس عاديهم وفيلسوفهم .

فى نفسه، فالطفل أول ما يتذكر انما يتذكر أسماء الأشـياء التى تتميز بلونها أو ثقلها أو صوتهـا أو نحو ذلك، وعلى الجملة فهو انمـا يتذكر ما يسـترعى حواسه، وما أشبه الأمم فى أول حالتها العقلية بالطفل، فانه يتدرّج فكرها فى الرقى كما يتدرّج فكر الفرد فى النمو، ودليلنا على ذلك اللغـة ، فاللغـة تضع أسمـاء وحدودا لمـا تدركه حواسنا، وما تدركه قوانا العاقلة ، وقد أثبت علم اللغـة أن أسماء الجوامد التى تدرك بالحواس أسبق فى الوجود من الألفاظ الدالة على عمـل الحواس نفسها من نظر وسمع ونحوهمـا ، لهـذا كانت المباحث الفلسـفية الأولى تدور حول المرئيـات ، أعنى مجموعة الأشياء التى نسـميها « العالم » فكانت أهم مسائلهم البحث عن كل المظاهر التى تقع عليها حواسنا والتى يطرأ عليها التغير الكثير، وعن العنصر أو مادة الشىء التى تبقى مع ما يطرأ عليها من التغيرات، تلك المسائل هى موضوع ما يسمى « فلسفة الطبيعة » ويقابلها « فلسفة العقل » .

٢ — وقد دوّن أفلاطون آراءه فى هذا الموضوع فى رسالة سميت « تِيمَايُسْ » وأوضح الفرق بين الطبيعيات وما وراء الطبيعة بأن الطبيعة « مَعْرِض التغير » وأما ما وراءها « فمعرض الثبات » وجمع أرسططاليس آراءه فى الطبيعة وفلسـفته فيها فى كتابه « علم الطبيعـة » . وفى العصور الحديثة سمى هـذا الجزء من الفلسفة

قُسْمُولُوجْيا (علم الكون) وجعل علم الطبيعة فرعا منها — وقد وَجَّه العقل البشرى نظره فى طور نشوءه الأوّل (أى قبل أن يفكر فى نفسه) نحو العالم الخارجى، أعنى نحو الطبيعة ودراستها — والطبيعة وحدة تتجلى فى أشكال متعدّدة ، وقد ظل الانسان من أيام نشأته يجدُّ فى البحث وراء معرفة القانون الثابت للتغير المستمرّ، ويريد أن يعرف ذلك العنصر الذى تنتابه التغيرات، وتجرى عليه الظواهر المتنوعة، وذلك ما ترمى اليه فلسفة الطبيعة. وكان ممن بحث فى هذا الموضوع فلاسفة اليونان الأوّلون مثل « طَالِيس » و «أَنَكْسِيمِينْدَر » و « أَنَكْسِيمِينِز » . وقد ذهب بعضهم الى أن ذلك العنصر الأساسى الذى تجرى عليه التغيرات هو الماء، وآخرون أنه الهواء، ومن أجل هذا سمى فلاسفة اليونان الأوّلون «الفلاسفة الطبيعيين» أى الذين بحثوا فى المادة — ما ظهر منها للحواس وما خفى — وهم أوّل من تكبدوا مشاق السير للوصول الى الحقيقة، وقد كان سيرهم بالطبع بطيئا يصحبه التردّد والحَيْرة، وحاولوا إيضاح الظواهر المتعدّدة ليدركوا منها وحدة العالم، وليشرفوا على ما شاع من غلط الحواس ، وقد نشأ علم ما بعد الطبيعة عند الفلاسفة الأيونيين من الطبيعيات كما نشأ هو (علم ما بعد الطبيعة) عند الفيثاغوريين من العلوم الرياضية. فالأوّلون كان يهمهم البحث فى الهيولى (المادة) وحركتها الأبدية، والآخرون (الفيثاغوريون)

فى النظام الذى يسود العالم — فى الوحدة والنسبة، وتوافق المتضادات، والعلاقات الرياضية الكامنة فى كل الأشـياء، ذاهبين الى أن كل شيء فى علم الهندسة والهيئة والموسيقى مآله العدد، وأن العدد أساس العالم و روحه ، وأن الأشياء ليست إلا أعدادا محسوسة، وكما أن العــدد روح الأشـياء فالوحدة روح العــدد[1]، وقد أهمل البحث فى الطبيعــة فى العصور الوسطى ، تلك العصور التى سادت فيهـا الكثلكة ، وغلب على النــاس التدين الأعمى والخضوع المطلق ، فلم يفكروا إلا فى أنفسهم وعلاقتها بالله بل كانوا يستخفون بهــذه المباحث ، فقــلّ النظر فيهـا ، حتى جاءت البروتستنتية فحررت العقول من أغلالهـا ، فهبت من رقدتهـا للبحث ، وساعد على نهضتها استكشاف ممـالك لم تكن تُعرَف ، فانبعثت الفلسفة القديمة، ووَجّهَ الفلاسفة مثال « جَالِيلُّو » و « كِپْلَرْ » و « بْرُونُو » وغيرهم أنظارهم نحو العالم والكون، فأدّاهم النظر الى استكشافات كبرى (وتبين ان ذلك الكوكب الذى نعيش فيه ليس إلا هَنَـةً تدور حول شمس من شموس عديدة انتـثرت فى الفضاء نثر الرمال

---

(١) ليس من الثابت تاريخيا نسبة لنظريات الفيثاغورية الى فيثاغورس الذى عاش فى القرن لسادس قبل الميلاد ، فان كل ما يعرف من حياته أنه أسس مذهبا دينيا، وكان ذا قدرة وكفاية فى السـياسة والأخلاق ، ولم يذكر أرسطو ولا أفلاطون شيئا عن تعاليم فيثاغورس نفسه ، بل كل ماذكراه انما كان عن الفيثاغوريين لا عن فيثاغورس (المؤلف) .

فى الصحراء) ولم يكن العلم الطبيعى (الفلسفة الطبيعية) متميزا عن فلسفة الطبيعة حتى فى أيام الفلاسفة «ديكارت» و «ولف» و « نيوتن » الى أن ظهر سنة ١٧٧٠ م . الكتاب المشهور المسمى « نظام الطبيعة » لمؤلفه « بارون هلباخ » وان كان الكتاب ظهر باسم « ميرابو » وجاء « كانت » و « شيلنج » فأوضحا الفرق بين فلسفة الطبيعة والفلسفة الطبيعية ، ومن ثم سارت العلوم الطبيعية شوطا بعيدا ، وقد حصرت فلسفة الطبيعة فى مسائل « ما وراء المادة » أو ما بعد الطبيعة ، وفى البحث فى أشياء كانت سببا فى استكشاف العلوم الطبيعية فيبحث فى : القوة والهيولى والحركة والحياة ونحوها مما هو موضوع العلوم الطبيعية .

الفصل الرابع

علم النفس (سيكولوچيا)

---

١ — كان مما لفت نظر الانسان وأيقظ رأيه واسترعى بحثه ومرن فكره — كما ذكرنا — هذا العالم الذى تنوعت أشكاله وتغيرت ظواهره ، الحافل بمناظره ، المحير بألغازه ، الذى

بهر العقول بجماله و روائه ، وقد كان أوّل باعث على أن يفكر فيه تفكيرا فلسفيا رغبته فى فهمه ، و إخضاعه لأمره ، وما اعتراه من الدهشة التى أخذت بحواسه ، لذلك بدأ الانسان بالفلسفة الطبيعية التى تميـل بالمرء الى حل معميات هذا العالم ، وتلا النظرَ فى العالم المـادّى ماهو أهم للانسان ، وهو النظر فى نفسه .

أثبت العـلم أن الأرض ليست إلا كوكبًا صغيراً سـياراً يدور فى فضاء غير متناه ، ومع هـذا فالانسان من قديم الزمان الى الآن لا يزال يرى نفسه خير موجود فى الدنيا ، ومهما اقتنع بأن القبـة الزرقاء التى تتلألأ بالنجوم لم تخلق من أجله ، وان السيارات غير الأرض مسكونة كأرضـه ، فلن يعدل عن أن يعتقد فى نفسه أنه أرقى مخلوق ، والسبب فى هذا أن ارتقاء عقله جعله يشعر تدريجياً بوجوده و بعلمه أو بحاجته الى العلم ، و بشعوره و رغباته وأفكاره ، و بأن له قدرة على أن يبدى أفكاره ، وأن يفضى بها الى غيره وعلى الجملة جعله يدرك أنه وحده عالَم فى عالَم .

دعته دواع لأن يعرف فاجتهد فى تعرّف ماحير عقله ، وكانت تلوح منه التفاتة نحو نفسه فيأخذه العجب من تلك القوة التى فيه ، بها يتحرك وينطق ، بها يريد و يرغب ، بها يشعر و يشتهى — قبل أن سـقراط استنزل الفلسفة من السماء الى الأرض ، أى الى

الانسان[1] ونعنى بذلك أن هـذا الفيلسوف اليونانى العظيم أول من بدأ بالتفكير فى الانسان وما يتعلق به، وفضّل ذلك على النظر فيما يحيط به من العالم المادّى . وقد نسب اليـه أنه أول من قال : «اعرف نفسك» ولكن الحقيقة أن «طاليس» قالها من قبـله . ومن ذلك الوقت والانسان حيران فى تلك الأسئلة التى وردت على لسان الشاب الحزين فى شعر « هَيْنِي » سألها نفسه فى جنح من الليل، وقـد هدأت الأصوات، وهو واقف أمام البحر المحيـط الموحش : « ما الانسـان؟ من أين أتى ؟ والى أين يذهب ؟ » تلك أسئلة تركت المفكرين فى كل العصور حيارى، أيام كان النوع

(١) يتركب الانسان من جسم وعقل والبحث فى الانسان قد يكون فى جسمه وقد يكون فى عقله والانثروبولوچيا أو علم الانسان يشمل كل الابحاث المتعلقة بالانسان، سواء من حيث عقله أو بدنه، وسواء من حيث هو فرد أو نوع، كما يشمل البحث فى علاقته بالحيوانات اللبونة .

وكلمة انثروبولوجيا يونانية الأصل تتركب من «انثروبوس» ومعناها الانسان و «لوچوس» ومعناها علم فمعنى انثروبولوچيا علم الانسان وهو يبحث فى كل مايتعلق بالانسان فيبحث فى أصـله وتدرّجه فى الرقى وكيف انتشر على وجه الأرض — والبحث فى جسم الانسان « الذى هو فرع من الانثروبولوچيا » تفرّع الى علوم كعلم التشريح والطب وكلها تسمى عادة (سوماتولوچيا) من «سوما» جسم «ولوچوس» علم أى علم الجسم ، وهو مما يدخل فى دائرة العلوم الطبيعية . والبحث فى الخصائص المميزة لأنواع الانسان المختلفة وعلاقة الأجناس البشرية بعضها ببعض يكون علما خاصا يسمى « أثنولوچيا » من « أثنـوس » شعب « ولوچوس » علم فالأثنولوچيا علم الشعوب (المؤلف) .

الانسانى فى همجيته، وأيام ان ابتدأ يرقى عقله، وأيام أن بلغ فى المدنيــة والنموّ العقلى شأوًا بعيــدًا . قال « سُوفُوكْليز» الروائى اليونانى : « ما أكثر العجائب وأعجبُها الانسان » . إن هذه الأسئلة : «ما الانسان وما منزلته فى العالم وما علاقته بالأشياء التى تحيط به ؟» هى التى قال فيها هَكْسِلِى : «أنها أساس كل ماعداها من الأسئلة وأنها أحب للانسان مما سواها» هى التى شغلت الرءوس على اختلاف أنواعها : من ذوات القلانس من قدماء المصريين، الى حملة العمائم، الى لابسى القبعات السود، الى أرباب الضفائر، الى ألوف من رءوس تصببت عرقًا من البحث . كلٌّ سأل هذه الأسـئلة، وكلٌّ أجاب واختلفت اجابتهم باختــلاف روح العصر الذى كانوا فيه .

٢ — وتسمى المباحث التى تتعلق بالنفس أو العقــل علم النفس أو سيكولوجيا من «سَيْكِى» نفس و «لوچوس» علم وهو يبحث فى الانسان من الجهة الخُلقية و لعقلية لامن الجهة الجسمية.

ولسنا نتعرّض هنا للبحث فيما اذا كان العقل أو النفس شيئا غير الجسم مستقلا عنــه، أو كانت قوّة التفكير التى ميزت الانسان عن غيره من الحيوان، والتى أخذت فى النموّ شيئا فشيئا برقى النوع الانسانى من حالة البداوة الى حالة المدنية، تابعة لحالات الانسان الجسمية، فان رسالة تؤلف لسواد الناس لا يتسع المجال فيها لهذا

البحث، ويكفينا هنا أن نذكر أن العلاقة بين العقل والبدن وإن شئت فقل بين أعضاء البدن الظاهرة والأخرى التى يظهر أنها خفية، كانت موضع اهتمام عظيم فى العصور الحديثة أدّى إلى كثير من النتائج العلمية الهامة ، ومن أشهر رجال هذا العلم «هكسلى» و «بِخْنَر» وغيرهما .

ان هذه الرسالة التى لم يكن من غرضها إلا النظر فى الفلسفة من جهة تاريخية وعرض مسائلها، تتجنب البحث فيما اذا كان النظام العقلى والبدنى شيئا واحدا أو شيئين، وفيما اذا كان العقل قوة غريزية أو مكتسبة ، بل ولا نتعرض لما « اذا كان الرقى العقلى للانسان — كما يقول هكسلى — يشبه السُّرْفَة (١) فى تحولها، تنزع عنها جلدها وتتحول الى فَرَاشَة، وأن العقل الانسانى فى أكبر مظاهره ثمرة القوى الطبيعية ، وأنه مركب من مواد كما تتركب الشمس والسيارات، أو أن الفكر منبعث عن النفس التى هى شرارة آلهية . كلا بل ولا نخوض فيما اذا كان الروح عند ما يلفظ النفس الأخير، يرد الى عالم الأرواح غير المعروف كما يقول رجال الدين ، فيرجع الجسم الى الأرض ويلحق الروح بالله ، أو أنه يفنى فناء الجسم ويشتركان فى الفناء كما اشتركا فى البقاء ويختفى الانسان كما يختفى النبات — تلك كلها مسائل نذكرها ولا نناقشها .

---

(١) السرفة : الشرنقة .

من المحتمل أن يكون الفكر شيئا روحانيا وأن يكون مجرد قوة بدنية هي وظيفة المخ المنظم عند الانسان أكثر منه عند الحيوانات اللبونة[١]. والذي يهمنا هنا هو أن نذكر أن المخ — على أي حال كان — هو عضو التفكير وهو يفنى مع مادة الجسم ويصبح الرأس بعد الموت وقد زال عنه كل ما كان له من حيل ودهاء ومغالطة وسفسطة .

وما دامت العلاقة بين الفكر والبدن قائمة وما دام المخ يؤدي وظائفه فاننا نعرف، ونفكر، ونريد، ونرغب، ونحس، ونشعر بصدور هذا عنا .

وعلم النفس ينظر في الأعمال التي نعملها والطريق التي نتبعها، للوصول الى ذلك الشعور ، ويبحث في حقيقة القوى التي تفعل ذلك أعني قوة المعرفة ، وقوة الشعور . وحدود الفكر، ومقدار الثقة بصحة التفكر، ووظائف العقل المختلفة التي بها ندرك ونحكم ونتخيل .

فعلم النفس اذا بحث في عمل العقل .

قال الأستاذ «سلي» في كتابه «العقل البشري» : "ان أهم ما يقصده هذا العلم أن يشرح ظواهر الشعور الراقي في الانسان ،

(١) الحيوانات اللبونة هي الفصيلة من الحيوانات التي ترضع أولادها وهي تكون أرقى نوع من الحيوانات الفقرية (المعرب) .

وهذا الشرح العلمى يقتضى ترتيبا وتبويبا للعوامل المختلفة فى الحياة العقلية، وشرحا لمنشئها وارتقائها ، فليس الغرض من هذا العلم أن يصف الظواهر العقلية فقط، بل وأن يتتبع أصلها وتاريخها " .

علم النفس يبحث فى قوى الالتفات، والاحساس، والادراك، وقوة الحافظة، والذاكرة، والارادة وحريتها، والخيال، والوهم، وفى الشعور والعواطف، وفى اللذة والألم وفى الشم والذوق .

فهو يبحث فى أعمال العقل ليستكشف قوانينه وطرقه التى عنها تصدر الظواهر المتقدّمة ، كما أنه يبحث فى طبيعة العقل وحقيقته وجريه على سَنَن واحد، وروحانيته ، وعلاقته بأعضاء الجسم واعتماده عليها، وتبادل الفعل والانفعال بينه وبينها .

قال الأستاذ « هَكْسلِي » : " ان مثل الباحث فى النفس « السيكولوجى » مثل المُشَرِّح ، فكما ان المشرح يفصّل الأعضاء الى أنسجة ، والأنسجة الى خلايا ، فكذلك السيكولوجى يرجع الظواهر العقلية الى حالات الشعور الأوّلية " فالعالِم فى وظائف الأعضاء يبحث فى الطرق التى بها يؤدّى البدنُ وظائفه، وعالِم النفس يبحث فى قوى العقل — وكما ان العلوم الطبيعية تبحث فى العالَم المادّى الخارجى بواسطة الحواس كذلك علم النفس يلاحظ ويبحث بواسطة قوّة خاصة تسمى « الحس الباطنى » .

وعلى الجملة فعلم النفس يبحث فى الحياة العقلية، قابلة أو فاعلة، وفى الشعور بكل مظاهره . وما يبحث عنه علم النفس من ظواهر وحقائق مستمدّ إما من الشعور و إما من الادراك بالحس .

٣ — ان فكرنا ومعرفتنا واحساسنا إما نتيجة قوّة إدراك باطنية و إما نتيجة انعكاس ماندركه من الخارج بواسطة الحواس : فنحن تارة نوجه نظرنا الى عمل ذهننا عند ما نعمل أو نفكر أو نحس، وتارة نبحث الظواهر العقلية فى غيرنا فندرس نظراتهم واشاراتهم وأعمالهم وأقوالهم . ونستنتج ما تدل عليه تلك المظاهر من الفكر والحس قياسا على مايبدو علينا عند مانفكر مثلهم أو نحس كاحساسهم .

قال الأستاذ سَلِي : " ان لدرس ظواهر العقل طريقتين : إحداهما توجيه عنايتنا الى الأعمال العقلية عند حدوثها فى ذهننا ، أو عقب ذلك مباشرة، كما ألاحظ نفسى عند الغضب مثلا فأرى تسلسل الأفكار وتلوّنها بألوان خاصة وماينشأ عن الغضب من تحيز وميل عن الحق ، وتسمى هذه الطريقة « ملاحظة الباطن » . والطريقة الأخرى أن ندرس أعمال العقل فى غيرنا بما يظهر عليهم فنلحظ الارتباط بين أفكارهم مما نسمع من كلامهم ، ونعرف الباعث على أعمالهم ، وتسمى هذه الطريقة «ملاحظة الظاهر» لأننا نتوصل الى معرفة الحقائق العقلية بواسطة الظواهر الخارجية

التى تدرك بالحواس من مثل كلمة تقال أو صرخة تسمع أو حركة ترى أو لون يتغير ".

٤ والبحث فى علم النفس (سيكولوجيا) سابق على وضع اسم له . فان هذا الاسم لم يستعمل إلا فى آخر القرن السادس عشر للميلاد مع أنا ذكرنا فيما قبل أن « سقراط » أو « طاليس » قال «اعرف نفسك» وألف « أرسطو » كتابا يحتوى ثلاث مقالات عنوانه «فى النفس» بحث فيه فى القوى العقلية للانسان، وعدّها عين النفس والحياة .

ثم جاء الفيلسوف الفرنسى رُنيه دِيكَارتْ (١٥٩٦ — ١٦٥٠) فوجه هذا العلم وجهة جديدة ، ومما يؤثر عنه أنه أجاب من سأل « كيف أعرف أنى موجود » بقوله المشهور " إنى أعرف أنى أفكر، وأشعر بتفكيرى، فأنا أعرف أنى موجود " .

وللنابع التى يستقى منها هذا العلم اثنان كما أسلفنا وهى ملاحظة أعمال عقله، وما يُجرى من التجارب على غيره — وجاء الفيلسوف الانجليزى جُونْ لُوكْ (١٦٣٢ — ١٧٠٤ م) فألف رسالة فى العقل البشرى بحث فيها فى الادراك الغريزى بالحس — باطنا كان أو ظاهرا — وذهب الى أن العقل البشرى صحيفة بيضاء، تدخل اليها التجاريب من أبواب الحواس فتترك فيها نقوشا وأثرا ، فنحن

نحصل معارفنا إما بواسطة الحواس وإما بواسطة التأمل[(١)]، وفى القرن الماضى بدأ الناس بعد ما استكشف من الحقائق اليقينية يميلون الى فصل علم النفس عن الفلسفة وجعله علما مستقلا كعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) إذ كان لاعلاقة بينه وبين نظريات ما بعد الطبيعة .

ولما كان علم النفس يبحث فى أعمال العقل بحثا عاما اجتهد فى تعرف القوانين والقواعد التى تهدى الفكر وتعصمه من الخطأ ؛ وأخذ يبحث فى النظام الذى يسير عليه الفكر ليصل الى نتيجة صحيحة ، فنشأ من ذلك فرع من علم النفس انفصل عنه وسمى « بعلم المنطق » .

الفصل الخامس

علم المنطـــق

١ — جاء فى احدى روايات « مُولْيير » أن أحد أغنياء التجار رأى أن ينزع عن جهله ويعود الى التعلم، فما كان أعجبه حين علّمه معلم اللغة أن الكلام إما نظم أو نثر، وأن كل ما ليس

---

(١) أنظر نظرية المعرفة الآتية .

بشعر نثر، ودعاه العجب أن يسأل : فمن أى نوع أنا أتكلم؟ قال: إنك تتكلم نثرا . قال : فأنا أتكلم نثرا طول حياتى ولا أعرف؟ ثم ذهب الى أهله و جمع عشيرته ليخبرهم بالاستكشاف الجديد . كذلك كثير من الناس يرعبون اذا ذكر اسم المنطق، أو اقترح عليهم أن يقرءوا كتابا فى المنطق، ولو علموا أنهم فى محادثاتهم اليومية، وما يدور بينهم من مناقشة وما يشرحون من معتقدات ومسائل دينية وسياسية يسيرون على مقتضى المنطق لاعتراهم من الدهش ما اعترى ذلك التاجر .

اذا شرحت نظرية أو قيل قول أو ذكر رأى فانا نصغى اليه ونفهمه، ولكنه لا ينطبع فى عقولنا حتى يبرهن عليه ، فان نحن حللناه وامتحناه وتبينت لنا صحته انطبعت فى عقولنا نتائج لا نشك فى صحتها، واننا إن سرنا على هذه الطريقة قيل أننا نفكر تفكيرا منطقيا أو تفكيرا صحيحا، فالمنطق إذن علم التفكير الصحيح، وهو يبحث فى القوانين والشروط الضرورية للوصول الى حكم صحيح يقبله كل مفكر عادى .

ما الشروط التى تجعل الحكم صحيحا ؟ كيف نمتحن الحكم ونتأكد من صحته ؟ هذه مسائل يبحث عنها علم المنطق وهو لا يعلمنا كيف نفكر أو ماذا يعمل عقلنا عند التفكير فحسب بل يعلمنا أيضا كيف ينبغى أن نفكر ، فهو يحلل التفكير الصحيح،

وما نعمله لنصل الى نتيجة صحيحة، و يرينا خطأ الفكر عند ماينحرف عن القواعد، هذا وكثير من الناس يستخفون بالمنطق و يستهزئون به وما در وا أنهــم مناطقة الى درجة ما ، تتبع عقولهم ما يرسمــه المنطق و إن لم يعلموا ، و يلاحظون قوانين التفكير الصحيح على غير علم منهم بها حتى ولا بوجودها .

٢ — اذا نحن امتحنا التفكير وجدناه يتركب من ثلاثة أعمال يعملها العقل : إحساس بالشيء أو المعنى، وتأثر العقل بهذا الشيء أو المعنى، وادراكه، وهــذا هو الفهم فى أبسط أحواله — بعد ذلك نبتــدئ نؤلف بين فكرتين فاما أن نقرن بعضهما ببعض أو نفرق بينهما (أى إما أن نثبت و إما أن ننفى) و بذلك يتكون الحكم على الأشياء، وهذه الأحكام يظهر لنا بعضها صحيحا والبعض الآخر خطأ ، و إذ كنا نحاول دائما الوصول الى أحكام مقبولة عند غيرنا كما هى مقبولة عندنا حاولنا أن نستكشف عللا وأسبابا نتبين منهــا وجوه خطأ الحكم وصحته ، فقارنا الأحكام بعضها ببعض ، ونظرنا فى العلاقات التى بينها، و بحثنا فيما يقال، مبتدئين من الجمل الأولى التى تسمى «المقدِّمات» ومنتهين بما يسمى «بالنتيجة» .

ولا حاجة بنا هنــا الى البحث فيما إذا كان الادراك يمكن أن يقوم بنفســه من غير ألفاظ أو لا، و إذا كان فالى أى حدّ يكون ذلك ؟ فان هذه المسألة كانت ولا تزال موضع بحث علماء النفس

والمناطقة ، فمنهم من يؤيد القول بأنه من الممكن التفكير بدون الاستعانة باللغة ، ومنهم من يذهب الى أن ذلك غير ممكن ، وأن التفكير من غير ألفاظ ضرب من الوهم الكاذب . وقد قرر «مَكْس مُلَر» مرارا أن الفكر واللغة حقيقة واحدة .

شبه ذلك بالنقد(١) فقال : " ليس ما نسميه بالفكر إلا وجها من وجهى النقد ، والوجه الآخر هو الصوت المسموع ، والنقد شيء واحد لا يقسم ، فليس ثم فكر ولا صوت ، ولكن كلمات " وقد نوقشت نظرياته وعورضت ، ومهما يكن فان من المسلَّم به أننا عند ما نتعقل شيئا أو نستنتجه نستعمل الألفاظ فى الدلالة على عمليات العقل ، ومن المتفق عليه أننا نشرح أفكارنا بالألفاظ والكلمات الخارجية ، فقد وضعنا للشيء الذى فى عقلنا اسما ، ودللنا عليه بكلمة خاصة سميناها «اللفظ» وبانضمام لفظين أو أكثر مع رابطة نستطيع أن نشرح رأيا أو حُكْما ، وهذا هو ما يسمى « القضية » ولأجل أن نبرر أقوالنا ونبرهن على صحتها ونوضح وجه قبول قول أو رفضه نضع القضايا ونستنتج منها نتائج ، وهذه الأدلة المكوّنة من القضايا تسمى «الأقيسة» . فالمنطق — وهو علم التفكير الصحيح — يبحث فى الألفاظ والقضايا والأقيسة .

---

(١) النقد هنا أحد النقود كالجنيه والريال .

هذا ولا يخفى ما فى تحديد معانى الألفاظ من الفائدة فكثيرا ما يثور الخـلاف بيننا فى مسألة، و يشـتد الجدال فى موضوع ، و يظهر أن المتجادلين على خلاف فيما بينهـم ، وهم فى الواقع على اتفاق ، ولو حدّدت ألفاظهـم لتجلى لهم أنهـم على رأى واحد . وليس منشأ الخطأ فى الفهم إلا الغلط فى تحديد الألفاظ أو غموضها وتعقيدها والتباسها لذلك كان «ڤُولْتير» يبدأ المناقشة دائمـا بقوله : «حدّد ألفاظك» فالعلم بمعانى الألفاظ علما صحيحا لا يستغنى عنه للتفكير الصحيح ولا للحكم الصحيح .

٣ ـــ وعند ما نستخلص حقيقة من حقيقة أخرى نسمى ذلك « استنتاجا » وليكون الاستنتاج صحيحا يجب أن نسير على مقتضى قوانين تعصمنا من الخطأ وتمنعنا من الوصول الى نتيجة باطلة .

والقوانين الأوّلية للفكر ثلاثة وهى :

(١) قانون الذاتية وهو ان كل شيء هو هو، و بعبارة أخرى كل شيء هو نفسه .

(٢) قانون التناقض وهو ان لا شيء يمكن أن يكون هو وليس هو .

(٣) قانون الامتناع وهو ان الشيء إما أن يكون أو لا يكون، أو الشيء إما أن يكون كذا أو غيره ، و بعبارة أخرى الشيء إما أن يجاب عنه بنعم أو بلا .

واذا نحن أهملنا قوانين الفكر الصحيح فلا بد من الوقوع في الخطأ مع عجزنا عن معرفة موقعه ، ولا بد لنا غالبا من الرجوع الى القول من مبدئه لاستكشاف الموضع الذى انحرفنا فيه عن الصواب ، والذى بسببه نصل الى غير ما قصدنا ، وتسمى هذه الأغلاط « بالمغالطات » .

ونحن فى بحثنا لا نقصد الوصول الى نتيجة صحيحة فحسب ، وانما نقصد الوصول اليها من أقرب طرقها ، وللوصول الى ذلك نستعمل نُظُمًا متنوعة يظهر لنا أنها أنسب لغرضنا ، وتسمى هذه النظم « بالطرق » . ويستخدم المنطق فى كل العلوم على اختلاف أنواعها .

وهذه الطرق متنوعة فمنها :

(١) طريقة الاستقراء وهى فحص أمثلة ومعلومات ثم محاولة الوصول منها الى قاعدة عامة ، وتسمى هذه الطريقة طريقة « التحليل » لأنها تحلل الكل الى أجزاء .

(٢) طريقة « الاستنتاج » وهى على العكس من الأولى ففيها يبتدأ بذكر قضايا عامة ، ووضع بعضها بجانب بعض ، واستنتاج النتائج منها . وتسمى «طريقة التركيب» لأن بها تركّب من الأجزاء قضايا عامة .

ففى الطريقة الأولى وقد تسمى أيضا « الطريقة العكسية » نبتــدئ من الجزئيات ونستقريها ثم نستنتج منها قضــية عامة . وفى الثانية وتسمى «الطريقة الطردية» نبتدئ من القاعدة العامة ثم نطبقها على الجزئيات التى نعرفها من قبل بالاختبار[1] .

الفصل السادس

علم الجمال

١ — هناك فرع آخر من فروع علم النفس يبحث فى الشعور الذى ينبعث عن الشيء الجميل والذى يستحق الاعجاب أو عكسهما ، أعنى القبيح والمُزْدَرَى .

ان فى حواسنا ولا سيما حاستى السمع والبصر أليافا ، بها نشعر باللذة اذا سمعنا بعض الأوصاف أو رأينا بعض المناظر ، وان المناظر الطبيعية العــديدة فى بهائها و جمالهــا وعظمها ، وتوقيع الموسيقيين

(١) مثال لطريقــة الأولى أن تقول أن المــاء يتمدد بالحرارة والحــديد يتمدد بالحرارة وتستقرى كثيرا من الأجسام فتجدها كذلك فتضع لقاعدة العــامة وهى الأجسام تتمــدد بالحرارة . ومثال الطريقة الثانيــة أن تضع القاعدة العــامة أولا ثم تستنتج منها أن الفضة والذهب والحديد تتمدد بالحرارة (المعرّب) .

فى تناسقه ، وصور المصوّرين وتماثيلهم[1] وقراءة الشعر الجميل وسماعه ، ليحدث فى نفوسنا أريحية ويبعث فى قلوبنا هزة طرب ، فطورا نلفظ بما يدل على شعورنا فنهتف « ما أجمله وما أبدعه . انه لَمُنَسَّق وانه لرشيق » وطورا نتدرّع بالصمت اذ لم نجد قولا يعبر عن شعورنا . وانا لنسر برؤية الشيء ونُعجَب به ولو كنا لا نملكه ، بل قد :

يزيدك وجهه حسنا * اذا ما زدته نظرا

ان الجميل ترتاح له النفس وينشرح له الصدر ، أما القبيح فينشأ عنه شعور بألم أو نفور قال «نيتشه» : "كل ما كان قبيحا يضعف الانسان ويقبض صدره ، اذ يُذَكّره بالانحطاط والخطر والوهن" .

فاحساس الانسان بشيء من الضيق يؤذن بحدوث شيء « قبيح » . وقد ذكرنا أن الجميل ترتاح له النفس ، ولكن ليس كل ما ترتاح له النفس جميلا ، ذلك لأن اللذة التى تحدث من الجمال نتيجة تأثير فى العقل بواسطة الحواس ، ولست أعنى كل الحواس ، وانما أعنى الحواس الراقية وهى حاستا السمع والبصر ، فليس كل ما يلذ لحاستى اللمس والشم دائما جميلا ، فلا شيء من الجمال فى فاكهة لذيذة عند أكلها ولا فى مطعوم عند ما نطعمه ،

(١) مثل المؤلف للموسيقيين بيتهوفن وموزارت ، وللمصوّرين بتشان و بيلو .

اذ لا يوصف ذوق تفاحة ولا شم مشموم بأنه جميل وانما يقال طعام مستطاب ورائحة طيبة .

٢ — والجميل أيضا يغاير النافع فان الشيء الجميل حقا الذى يمنحك لذة لا تكافئها لذة بالتأمل فى محاسنه أو بالاصغاء الى تناسق نغماته ، ليس بنافع عادة (أعنى أنه ليس بنافع ماديا وان كان من المحتمل أن يكون نافعا من الوجهة الأدبية) وما يحدث من اللذة والسرور عند التأمل فى الجمال مقصود لذاته لا لشيء آخر وراءه يرغب فيه ، وقد كان الفيلسوف الألمانى «كانت» أول من أبان أنه مقصد لا وسيلة لغيره .

والسمع والبصر اللذان يعدان أعظم الطرق الى العقل ، هما العضوان اللذان يوصلان الى المخ أو الى المركز العصبى كل التأثرات التى تحدث من التأمل فى اللون والشكل والهيئة والحركة ، أو من سماع أصوات خاصة . وهذه التأثرات تكون مصحوبة عادة بشعور بلذة أو ألم . وتسمى اللذة التى تحدث من التأمل فى الجمال «لذة الجمال» وهى أثر الجمال يخاطب عواطفنا وعقولنا وخيالنا بواسطة الحواس فيُذْكى نفوسنا و يرقيها و يُزَكِّيها . ومن مميزات هذه اللذة خلوها من رغبة فى الملك تسبب احساسا بالألم لا محالة — ففرع الفلسفة أو علم النفس الذى يبحث فى هذه العواطف وتلك اللذائذ هو «علم الجمال» . والانسان كثيرا ما يحس بسرور ولكنه لا يعرف

علته وقلما يبحث فى السبب ويحلله . والغرض الفلسفى من عا
الجمال أن يبحث وينقب ويحدّد ذلك ، نعم ان الفيلسوف والعامى
يشتركان فى أن كلا يشعر، ولكن الثانى لا يستطيع أن يوضح شعور
بقول أو فعل كما يستطيع الفيلسوف والفَنّان(١) فالعامى يشعر فقط،
والفيلسوف يشعر ويتأمل . فى العامى غريزة ساذجة وعاطفة وإلها
يشاركه فيها الحيوان الى حدّما، وفى الفيلسوف تبصر وإمعان وفكر .

٣ — علم الجمال وان شئت فقل «علم الجميل» هو علم يبحث
فى الشعور والاحساس واللذائذ التى تبعثها مناظر الأشياء الجميلة :
وهذا التعريف لا يسلم من النقد إن لم يكن خطأً محضا، فان هذ
العلم لا يبحث فى الجميل فقط بل يبحث فى القبيح أيضا ، كما أنا اذ
تكلمنا عن « علم الحروب » فلسنا نعنى علم النصر، وانما نعنى عا
الحركات الحربية التى ينبغى أن تؤدّى الى النصر وربما أدّت
الى الهزيمة .

الجميل يبعث فى النفس الشعور بالحب والجاذبية واللذ
والسرور، والقبيح يبعث الشعور بالكراهية والنفور، ولكن نرى
جمال الطبيعة الرائع، والنجوم التى لا عداد لها، سابحة فى الفضاء
منثورة نثر الرمال فى الصحراء، والجبال الشامخة، والبحار الشاسعة

(١) استعملنا كلمة الفنان ترجمة لكلمة (Artist) وهى فى مقابلة لعالم، فالعا
من يبحث فى العلم، والفنان من يشتغل بالفن كالمصوّر والموسيقى .

وشروق الشمس وغروبها . فنطلق عليها اسم « الجميل » وهى مع ذلك تحـدث فى النفوس حزنا عنـد التأمل فيها، وتبعث نوعا من الكآبة (أو الوجد) يصح لنا أن نسميه ألمـا لذيذا . وسبب هذا أننا نُرَاعُ أمام هـذه الأشياء باللانهاية ، ويعلونا الشعور بأنا لم نعد فى حضرة «جميل» بل فى حضرة «جليل» وهذا يحدث فى النفس اولا شعورا بالضعة ثم يتلوه شعور بالرفعة .

٤ - ويقابل الجليل «الفَكِه»(١) وهو ينشأ من تضادّ أو عدم ملاءمة أو ظهور الشىء بغير مظهره، كالوقار المصطنع والصـلاح المفتعل . قال الأستاذ سلى فى آخر كتاب له واسمه «رسالة فى الضحك» "ان لفظى المضحك والفكه يمكن استعمال أحدهما مكان الآخر الى حدّ ما مع أمن اللبس، ومع ذلك فيحسن أن يلاحظ أن اللفـظ الثانى يستعمل عادة فى معنى أدق من الأوّل، اذ الظاهر أن لفظ (الفكه) لا يدل على ما يضحك منه فحسب، بل يدل أيضا على ذلك النوع من المجون العقلى الذى يتضمن ملاحظة مابين الأشـياء من الروابط والنسب ملاحظة واضحة، ويتصل تمام الاتصال بما ذكرنا من دلالة كلمـة (الفكه) على الجانب العـقلى أنه يلاحظ فيها أيضا

(١) فى القاموس فكههم بملح الكلام تفكيها أطرفهم بها وفكه كفرح فهو فكه طيب النفس ضحوك أو يحدث صحبه فيضحكهم وقد استعملنا كلمة فكه ترجمـة لكلمة (Ludicrous) للدلالة على الشىء المضحك بنوع من المهارة العقلية كما يدل عليـه قول سلى (المعرّب) .

الدلالة على المثل الأعلى لما يستحق أن يضحك منه، وفيها — كما فى كل ما يثير عاطفة الجمال — اشارة شبه خفية الى قواعد الفن المنظمة للعمل" .

والمناظر المحزنة تبعث فى النفس لذة مشوبة برحمة ، لذة يخالطها شىء يشبه الألم، وسبب هذه اللذة أن للعواطف الأخلاقية عملا فى هذه الأشياء، وعلم الجمال يبحث فى كل هذه الاحساسات، فهو علم الشعور والعواطف والانفعالات .

علم الجمال يحدّ الجميل والقبيح والجليل والهزلى والفكه ،و يبحث فى السبب الذى من أجله يظهر الشىء جميلا أو قبيحا ، يبحث فى الجمال المطبوع كما يبحث فى الجمال المصنوع ، أعنى أنه يبحث فى الفنون (١) وفى جمال الذات وجمال المعنى ، فهو بذلك حلقة الاتصال بين الفلسفة والفن وهو ــ فلسفيا ــ جزء من علم النفس .

٥ — عمَّ ينبعث الشعور بالجمال؟ هل هناك جمال قائم بنفسه، أو أن الشعور بالجمال يعتمد على ما نجده من أنفسنا فى الشىء وعلى

(١) استعملنا كلمة (الفن) فيما اصطلح عليه الكتّاب حديثا أعنى فى مقابلة (العلم) فهم يطلقون (العلم) على القضايا المنظمة المبوّبة ، وأما الفن فيطلق على استعمال العلم فى أغراض عملية فيلاحظ فى العلم الجانب النظرى وفى الفن الجانب العملى فما وراء الطبيعة علم لا فن والخط فن وقد يجتمع فى الشىء الواحد علم وفن فيقال علم الموسيقى وفن الموسيقى فنظريات الموسيقى ومسائله مبوّبة علم الموسيقى وأما مباشرة التوقيع على الآلات الموسيقية ففن و بهذا المعنى تطلق الفنون الجميلة على الموسيقى والشعر والتصوير (المعرّب) .

ما يظهر به الشيء أمام أعيننا ، ومن ثم كان الصوت أو المنظر يسر انسانا ولا يسر آخر بل ربما يسوءه؟ ما خواص الحركات والأشياء التي يكون بها الصوت جميلا منسقا يلذ السامعين؟ هل هناك عنصر مشترك في كل ما هو جميل؟ هذه المباحث وأمثالها هي التي يشتغل علم الجمال بدرسها .

قال الأستاذ « بينْ » في كتابه « الانفعالات والارادة » : " ان الفكرة الأولى في الجمال تنشأ عن الألوان ، فالطفل قبل أن يشعر بلذة من جمال شكل أو جمال حركة تأخذ ببصره الألوان لزاهية والصور البديعة . واني أميل الى تقرير ذلك عند القرويين ، فانه تغلب عليهم هذه الفكرة في الجمال حتى في تقدير جمال النساء " .

ويوضح هذه الفكرة ان الأجناس البشرية الأولى والأشخاص الذين لا يزالون في طور الانحطاط ينجذبون نحو الألوان الزاهية في الجماد والحيوان .

ان من أخذوا بحظ قليل من الرقي ولم يصلوا الى حد أن يوجهوا نظرهم نحو أنفسهم يميلون إما الى الألوان القوية (كالأحمر والأصفر) أو الألوان المتنوعة . أما الراقون المهذبون فيميلون الى الألوان المتلائمة والخفيفة ، تعجبهم وحدة الفكرة التي تنسق الألوان المختلفة والمظاهر المتعددة .

والقوّة التى بها نميز الجمال ونقوّمه هى التى نسميها بالذوق، وهى ملكة فى الانسان بها يشعر بلذة الجمال، منحها الناس على تفاوت فيما بينهم، يرقيها التهذيب والمدنية فى الفرد والمجتمع الى درجات متفاوتة.

٦ — انا لنرى أن الصوت الواحد أو المنظر الواحد لا يؤثر فى السامعين والناظرين أثرا واحدا، وسبب ذلك : (أوّلا) أن الخيوط العصبية ليست سواء فى التركيب عند الناس، وأن الاختلاف بينهم فى المزاج والتربية والعادات كبير، و(ثانيا) ان الناس مختلفون فى درجة الرقى العقلى — وليست الحواس وحدها تكفى فى إدراك الجمال بل لا بد معها من العقل، فالحواس وحدها تستطيع أن تدرك الحركات والأشكال والأصوات والألوان على انفرادها، ولكن لابد معها من الفكر والشعور ليربطا بعضها ببعض، ويكوّنا منها مجموعة واحدة متناسقة الأجزاء — وبهذا أيضا يختلف الانسان عن الحيوان، فالحيوان يستطيع أن يدرك ألوان صورة ذات ألوان كصورة العذراء لروفائيل، ويسمع الشعر، ولكن لا يدرك ما يدل عليه ذلك من عشق، ولا يشعر بما يمثل من عواطف .

هذا هو السر فى أنك ترى إنسانا يَلْقَفُ[1] الجمال ويفهمه فى الطبيعة والصناعة، وفى تناسق الأصوات والصور، على حين أنك ترى الآخر لا يأبه لكل هذا . هو السر فى أنك ترى الشخص

(١) يدركه بسرعة .

مفتونا بالشيء لَهِجًا بذكره بينا ترى الآخر ضَجِرا به متبرما منــه — ترى جماعة يلذ لهم سماع رواية راقية مهذبة ، وترى الآخرين انما يلذ لهم أن يروا منظرا مضحكا فى ملعب . هذا هو السر فى ميــل السيدة من الأشراف الى الألوان الخفيفة والقاتمة — أو على الأقل — الألوان المتناســبة ، بينا نرى خادمتهــا السوداء تميــل الى الأحمر والأصفر . ذلك لأن إحداهمــا لها ذوق والأخرى ليس لها أو لها ذوق لم يَرْقَ بعد .

٧ — ولذة الجمــال تعلن عن نفسها غالبــا بايجاد عمــل من الأعمال ، ففى الانسان رغبة متأصلة فى أعماق نفســه تدعوه لأن يوضح ما يشعر به إما بخط أو صوت أو تصوير، فهو لا بد أن يتكلم ويصوّر ما فى نفســه ، ومن لم يستطع أن يتكلم أو يكتب أو يؤلف يحاول أن يفعل ، فيفكر ويشعر بأنه فى حاجة الى ذلك ، ولكنه لايجد عنده القوّة عليه ، أما من استطاع فلا بد أن يستخدم قواه قال « كَارْلَيْل » : « لا يمكن أن يوجد مِلْتُنْ صامت غيرمجيد» ونزيد عليه فنقول لا يمكن أن يوجد «بِيتْهُوفَنْ » أو « مُوزَارْت » صامت لا يطرب بل ولا يوجد « مِيخَائيل انجلو» أو «روفائيل» يَرَى ولا يصــوِّر (١) .

---

(١) ملتن شاعر انجليزى و بيتهوفن وموزارت موســيقيان جرمانيان وميخائيل وروفائيل مصوّران ايطاليان .

والتأثر — طبيعيا كان أو عقليا أو أخلاقيا — اذا شُرح بخط أو كلام أو صوت أو تصوير أو حفر أو بناء أو شعر أو موسيقى سمى فنّا، فالفن ملكة يقتدر بها على إظهار العواطف والشعور فى مظهر خارجى . لذلك كان الشعور بالجمال الذى هو صفة قابلة عند الانسان العادى قوة فاعلة عند الفنّان، فان القوة اذا زادت حملت على الفعل وكان صداها العمل — والفنان يستطيع بواسطة الأحجار والألوان واللغة والصوت أن يشرح مالا نراه ، فيستطيع أن يشرح لنا المثل الأعلى فيرقّى بذلك نفوسنا ويزكيها ويهيج فيما أسمى العواطف ، ويستخرج منا خير الأفعال ، والفن يخاطب العقل كما يخاطب القلب . وعلى الجملة يخاطب أعماق النفس الباطنة وكل قوة فينا — الفنان يجمع خواص كل عاطفة وفكرة وملامح ويوضح لنا منها ما لم نكن نفهمه من قبل وهو يرى ما لايراه غيره ، فيرى المثل الأعلى للشيء ويمثله . وهنا تعرض لنا أسئلة وهى : هل الفن مقلد فقط فيمثل بأمانة المناظر المحسوسة . وهل للفن غرض يرمى اليه أو أن الفن للفن . هل هو مستقل عن الحاسة الاخلاقية أو يجب أن يكون على وفاق معها ؟ هذه مسائل شغلت عقول الفلاسفة ونشأت منها نظريات مختلفة منها «مذهب الواقع» و « مذهب الكمال » .

٨ — فمذهب الواقع يرى أن الفن يرمى الى تقليد الطبيعة كما هى، وعلى الأقل الى القرب منها جهد المستطاع ، ومذهب

الكمال يرى أن الفنان إذ أراد أن يقلد الطبيعة يجب ألا يقلدها تقليدا تاما ، بل يتصوّر الكمال فيها ويخرجها الى الوجود مازجا فيها الواقع بتصوّراته وعواطفه ، يحاكى الطبيعة ومع ذلك يعدّلها ، يختار من الأشياء ويوفق بينها ويخرجها للناس مترجما عما فى نفسه ، فهذا المذهب يرى أن عمل الفن أن يمثل المناظر الأصلية أو الأخلاق الفاضلة أو الآراء العظيمة بخير مما هى فى الواقع ، ويجعلها أعظم تأثيرا فى العقول من حقيقتها ، يرى أن الفنان تملكه العاطفة فيحوّلها الى قوّة عاملة فيمثل الشىء لا كما هو ، ولكن كما يدركه .

والموضوع الآخر هو هل الفن يجب أن يخضع للغرض الذى يرمى اليه علم الأخلاق أو أنه فوق ذلك؟ ذهب قوم ومنهم «رَسْكِن» الى أن الفن يجب أن يكون أخلاقيا وأن أهم ما يجب على الفنان أن يشرك الناس معه فى عواطفه الشريفة ، وليس هناك شىء وراء الأخلاق يصح أن يقصد من الفن — وذهب آخرون الى أن الفن انما يبحث عن الجميل لا عن شىء وراءه ، انما يهم الفن جمال الشكل . أما الموضوع فليكن ما يكون ، ليكن رذيلة أو جريمة — وذهب بعض علماء الجمال الى أبعد من هذا فقرّروا أن "علم الجمال أعلى شأنا من علم الأخلاق" وأن النظر فى الجمال والبحث فيه أرقى ما يمكن أن يصل اليه الانسان ، وأن ذوق الألوان أهم فى رقى الانسان من الحاسة التى تدرك الخير والشر .

٩ — والبحث فى الجمال أقدم من اسم العلم (علم الجمال) أو (الاستتيق)[١] فقد بحث فلاسفة اليونان فى الجمال، وقد غلبت على سقراط الآراء الأخلاقية — كما حكى عنه زينفون — فعدّ الجميل مرادفا للنافع[٢] ورأى أفلاطون فى كتابه «هيبياس الأكبر»[٣] ان الجمال شيء آلهى يرادف الخير وانه معنى مطلق مجرّد غير قابل للتغير، وقرر أن روح الإنسان قد تمتعت بالجمال الأزلى فى الحياة الأولى قبل أن تحل بالأجسام فى هذا العالم، ومن أجل هذا اذا رأى شيئا فيه نفحة من الجمال أخذته الروعة لتذكر ما كان فيه، ومن رأى أفلاطون أن الجمال معنى

(١) ذكر المؤلف هنا اشتقاق الاسم الفرنجى لعلم الجمال (Aesthetics) أو استتيق وذكر أن أوّل من استعمل هذه الكلمة بومجارتن (١٧١٤ — ١٧٦٢م) أحد أتباع وولف الألمانى وهو أوّل من بحث فى الجمال وجعله فرعا من الفلسفة مستقلا واللفظ مشتق من (Aestheticos) ومعناها الإدراك أو المدرك بالحواس فسمى هذا العلم (Aesthetics) مريدا به الإحساس بالجميل والجميل عنده يدرك بالحواس لا بالعقل كما يدرك المنطق وبقيت الكلمة تستعمل للدلالة على علم الجمال مع أنها صارت تشمل معنى أوسع مما يدل عليه اشتقاقها .

(٢) ليعلم القارئ أن سقراط لم يخلف لنا كتبا ، وأنا مدينون بكل ما نعلمه عنه لتلميذيه زينفون وأفلاطون ، وقد نقلا بعض تعاليمه بعبارة من عندهما فزينفون نقل ذلك فى كتابه المسمى — ذكرى سقراط — وأفلاطون فى المحاورات، وكثيرا ما يتعذر على قارئ المحاورات أن يفرق بين ما هو منقول عن سقراط وما هو لأفلاطون نفسه (المؤلف) .

(٣) مما يشك فيه نسبة — هيباس الأكبر — الى أفلاطون (المؤلف) .

فى الشىء مستقل عن حواسنا ولكن العلماء العصريين — ولا سيما من يوم أن ظهر مذهب النشوء والارتقاء — ذهبوا إلى أن الجمال ليس معنى فى الشىء نفسه، بل معنى يوجده إحساسنا وحواسنا ، وعلى رأى أفلاطون يكون هناك جمال مطلق تشترك فيه كل الأشياء الجميلة — كذلك أرسطو ألف كتابا فى الشعر وبحث فيه فى « الفنون » — أما فى القرون الوسطى فلم يوجهوا أى التفات إلى « علم الجمال » — ثم كان لما اشتهر به الانجليز من الذوق الفطرى أثر فى الفلسفة الانجليزية وفى نظريات علم الجمال، ففى الفلسفة كانت همة فلاسفتهم موجهة إلى التجارب ولم يكونوا يعنون النظر فى الأشياء نفسها ، وإنما فى تأثير هذه الأشياء فى حواس الإنسان وطباعه وطبيعته ، وكان علم الجمال عندهم فرعا من فروع الفلسفة التى اهتموا بها . وفى علم الجمال كان أول بحث علمائهم فى التأثير الذى يحدثه التأمل فى الجمال ، ثم انتقلوا منه إلى البحث فى الصفات التى يجب أن يتصف بها الشىء ليكون له ذلك التأثير .

ومن الفلاسفة الذين رقوا نظريات هذا الفرع من الفلسفة : « لُوكْ » و « كَدْوُرْثْ » و « هُومْ » و « هُوجَارْثْ » و « بِرْكْ» و « شَافْتِسْبِرِى » و « هَتْشُسُون » و « رِيدْ » ومن الألمان : «فنكلمَان» و «لِسِّنْجْ » و «هِرْدَرْ» و « كَانْتْ» و « كانت» هو

القائل فى كتابه « نقد العقل المجرّد » : (يجب ألا نبحث أوّلا فى الجميل نفسه بل فى حكمنا الشخصى وذوقنا) وهو الذى قرر كما ذكرنا قبل أن لذة الجمال يجب أن تكون مقصودة لذاتها لا لغاية وراءها ، وجاء الشاعر « شِلَر » فرقى نظريات « كانت » وكان يرى أن حاسة الجمال ليست إلا عند الإنسان، وقد تبين خطأ هذه بواسطة «علم النشوء والارتقاء» ومن آراء شلر أن أصل الفن هو ميل الانسان الى اللعب ، وقد بحثت هذه النظرية بعد بحثا أوسع مما ذكره شلر . وهنا يحسن بنا أن نذكر من الفلاسفة غير من ذكرنا « هِجِل » و « شِلِنْج » و « شُوبِنْهَوَر » و « فَخْنَر » الألمانيين، و « تِين » الفرنسى، و « رَسْكِن » الانجليزى، و « هَنْبرجْ » الدانيمرقى و « بِيلِنْسكِى » الروسى ، إلى غيرهم ممن لا تسعه هذه الرسالة .

الفصل السابع

علم الأخلاق

---

١ — اذا كان علم النفس يبحث فى الانسان كما هو وفى أفكاره وأعماله كما هى ، فعلم الأخلاق يبحث فيما ينبغى أن يكون عليه الانسان ، وما ذا ينبغى أن يعمل، وبأى شكل يشكل حياته —

منح الانسان كثيرا من القوى والملكات وله ميول كثيرة، ورغبات وحاجات عديدة، وهو ليس بمخلوق قد رسم له نوع من العمل يعمل فيــه بآستمرار فحسب، بل هو مخلوق حرّ، له السلطان التام على أعماله، ففى استطاعته أن يوجه إرادته وأعمـــاله الى أى جهة أراد، وأن يعامل بنى نوعه كما يشاء، ينفعهم أو يضرهم، وفى حق نفسه يستطيع أن يكون مجدّا أو كسولا، عاملا أو لاهيا، وإرادة الانسان وأعماله لا بد معها من مقصــد، ويستحيل إرادة عمل من غير غرض أو مقصــد يقصده بعمله، وعلم الأخلاق يبحث فى المقصـــد والغرض الذى ينبغى أن يكون والذى يحاول الانسان أن يناله بأعماله وإليــه يوجه إرادته، وان ما منحه الانسان من قوّة الفكر العجيبة — التى بها يستطيع أن يبحث فى ماهية نفسه — يؤهله للنظر فيما هو الغرض من وجوده، ووضــع قوانين وقواعد لسلوكه وأعمـــاله، وعدّ بعضها حسنا والآخر قبيحا، ولا بد له من إعمـــال الفكر لمعرفة تلك القواعد، ومجموع هـــذه الأفكار يسمى علم الأخلاق فهو يبحث فى مصدر الأعمال والباعث عليها والمقصد منهـا وقوانينها، يبحث فى أعمال الانسان الاختيارية ومصـــدرها وفى الحكم الأخلاقى والعواطف ومظاهرها فى الحياة .

٢ — ما البواعث التى تدفعنـــا الى الإتيان بعمل معين فى ظروف خاصـــة دون أن تدفعنا الى غيره من الأعمال؟ من أين

نعرف الخير والشر وانى أين توصلنا هذه المعرفة؟ تلك أسئلة يتكفل بالإجابة عنها علم الأخلاق .

يظهر أن فى الانسان صوتا باطنا يوحى اليه بما ينبغى أن يفعل، و يميز به بين الحق والباطل، والحسن والسيئ ، والنافع والضار، والأخلاقى[1] وغيره، ويسمى هـذا الصوت بالوجدان ، وهو نوع من الشعور الباطنى ليس يخضع لسلطان خارجى ، وهـذا الشعور هو الذى كان يحمل الناس على السير فى طرق خاصة قبل أن تبحث النظريات الأخلاقيـة بحثا فلسفيا بأزمان طويلة، وهو ناشئ إما من غريزة فى الانسان، و إما من المعتقدات الدينية، و إما من أحكام تواضع بعض الناس عليها وقرروا العمـل بها لمـا رأوا فيها من الخير والمنفعة العملية لهم ،وتأكدت هذه الأحكام بالجرى عليها ، ثم أجبر الناس على العمل بمقتضاها وصارت فيما بعد عرفا وعادات، وأصبح العمل على وفقها أخلاقيا، وانتهاك حرمتها مخالفا للأخلاق، قال زجلر : "العرف مجموعة أعمـال محـدودة تواضع الناس عليها اعتباطا ، ونَمَت فى أوساط خاصة سيما فى المجتمعات الطبيعية والجنسية كالعشيرة والقبيلة ، ثم صار يُعَدّ انتهاكها تعدّيا على الآداب واتباعها فضيلة" .

---

(١) يقال عمل أخلاقى اذا كان يتفق مع ما تأمر به الاخلاق وارتكبنا فيه النسبة الى الجمع خوفا من اللبس (المعرّب) .

٤ — وبعد أن جمع علم الأخلاق عادات الأمم وخصالها، ورتبها وقسمها لم يقنع بحقائقها مجردة بل أخذ يبحث فى «من أين ؟» و « لمَ ؟ » و « الى أين ؟ » .

ابتدأ هذا العلم ببيان عادات الأمم ونَظَّمها، واستحسن بعضها واستقبح بعضاً[1]، وكما كانت اللغة سابقة على قواعد النحو كذلك موضوع الأخلاق كان قبل أن يبحث فيه علم الأخلاق، ثم جاء هذا العلم فاجتهد فى استنباط قواعد يهتدى بها الانسان فى أفعاله .

لهذا كان علم الأخلاق يمتاز عن الفلسفة النظرية بأنّ بحثها مقصور على ما كان وما هو كائن وما سيكون، أما علم الأخلاق فيزيد على ذلك أنه فلسفة عملية ، يجتهد فى تقرير ما ينبغى أن يكون ، فهو علم سلوك الانسان وعاداته .

٤ — ان قليلا من الخبرة يكفى فى إرشادنا الى أنّ الانسان ليس مطالبا أن يعمل كما يشاء، حينما يشاء؛ ولا أن يعمل كل ما يستطيع أن يعمل، بل هو على العكس من ذلك ، فكثيرا ما يطالب أن يتجنب عمل ما يسره و «أن يخضع ارادته لارادة غيره» وأن ينظم ارادته ويشكلها على حسب ظروف الأحوال .

---

(١) أبان المؤلف هنا اشتقاق الكلمة الإفرنجية المستعملة اسما لعلم الاخلاق (Ethics) وأنها مأخوذة عن اليونانية من كلمة معناها « الخلق » وفيها اشارة الى العادة والعرف .

وتاريخ الأمم كذلك يرينا أن الناس اختلفوا ولا يزالون مختلفين فيما هو الحسن والسيئ، والأخلاقى وغيره، وان العمل الواحد قد يكون فى حالة حسنا وفى حالة قبيحا، ويكون أخلاقيا فى مكان أو زمان ومستهجنا فى مكان أو زمان آخرين، لذلك كان من عمل علم الأخلاق أن يحدّد لنا الحسن والسيئ، ويبين لنا ان كانا يتغيران بتغير الأزمان أو هما ثابتان لا يتغيران، مع تغير العصر والانسان.

٥ — وعلى الجملة فعلم الأخلاق يوضح لنا الحياة الأخلاقية، ويعين الوسائل لامتحان الآراء الأخلاقية التى تظهر فى شكل عرف وعادات، ويعيننا على معرفة الغاية الأخيرة للحياة، ويساعدنا على النظر فى النظم لابقاء ما يصلح منها للبقاء واصلاح الفاسد، ونبذ ما لا يصلح، ويبين المقياس الأخلاقى الذى به نحكم على الأعمال وبه نهتدى فى ميولنا وأفعالنا. وليس غرض هذا العلم مقصورا على معرفة مجهودات الانسان واشكال المعاملات وتأثيرها فى حياتنا، بل من غرضه أيضا التأثير فى ارادتنا، وهدايتها، واستكشاف علة الحياة الأخلاقية، وتقويم الأشياء على قدر اعتمادها على ارادتنا، وارشادنا الى كيف نشكل حياتنا ونصبغ أعمالنا حتى نحقق المثل الأعلى للحياة، ونحصل خيرنا وكمالنا ومنفعة الناس وخيرهم — ويتذكر القارئ انا ذكرنا فى تمهيد الفصل الأوّل ان الحق الذى يكتسب من النظر الفلسفى ليس مقصورا على التأمل العقيم

بل نهاية هذا التأمل أن يستخدم فى الحياة العملية ، ونزيد هنا ما قاله الأستاذ «بولسن» فى كتابه « نظام علم الأخلاق » : "ان المقصد الأخير الذى دفع الناس الى التأمل فى طبيعة العالم سيظل دائما هو الرغبة للوصول الى نتائج ترتبط بمعنى حياتنا ومنبعها والغرض منها ، فأصل الفلسفة كلها والغرض منها يجب أن يتطلب اذن من علم الأخلاق" .

٦ — ذكرنا قبل أن سقراط وجه فكر اليونان الى البحث فى الانسان وكانت الفلسفة قبله منصرفة الى العالم المادى، ومع أن سقراط فعل ذلك فقد كانت الأفكار الأخلاقية منثورة فى أقوال الشعراء على شكل حكم وأمثال، (ولم يكن ثم علم خاص بها) ولذلك كان أول ظهور الشعور الأخلاقى[1] عند اليونان انما هو فى شعرهم ، وكان كما قال الفيلسوف الفرنسى « پول چانيه » : "ان الشعراء كانوا أوّل لاهوتى[2] عند اليونان كما كانوا أوّل واعظ" — أما البحث الحقيقى فى الحقائق الأخلاقية فأوّل من بدأ به عند الغربيين أفلاطون وأرسطو، ولا سيما أرسطو، ولكن أحدا منهما لم يخترع الحكم الأخلاقى على الأشياء، فقد كان الناس قبلهما بأزمان طويلة

(١) نعنى بالشعور الأخلاقى الشعور بالخير أو الشر و بعبارة أخرى الشعور الذى يصحب الانسان عند اتيانه بعمل خير أو شر .

(٢) اللاهوتيون رجال الدين .

يحكمون على عمل بحكم وعلى غيره بآخر، ويميزون بين الحسن والسيئ ، والأخلاقى وغيره ، وانما البحث العلمى يجمع الحقائق ويبحث فى البواعث والعلل ، فيبحث مثلا فى لماذا كان القتل أو السرقة رذيلة ، ولم كان الكذب غير أخلاقى والصدق أخلاقيا .

ابتدأت الفلسفة الأخلاقية عند اليونان بقولها ان هناك خيرا عظيما يجد الانسان للوصول اليه ، ويقصد الحصول عليه لذاته لا لأنه وسيلة الى شىء غيره ، ويمكن تحصيل ذلك الخير بالعمل ، ويجب أن تنظم أعمال الانسان بملاحظة ذلك الخير ، وهذا الخير هو السعادة ، وهى الغاية القصوى لأعمالنا ، وكل غاية غيرها تابعة لها ، ولْنُسَمِّ هذه النظرية «نظرية السعادة» وهى تقول : "ان السعادة أعظم خير للانسان والغاية الأخلاقية من سلوكه" وبعد أن سُلم بهذه النظرية أى أن أعظم سعادة للشخص هى أعظم الخير له تساءل فلاسفة الأخلاق اليونانيون : ما أعظم سعادة للشخص وما خير الوسائل التى عساها توصل اليها ؟ على هذين السؤالين أجيبت أجوبة مختلفة ، رأى سقراط — ذلك الفيلسوف الذى لم يشأ أن يشغل نفسه بالبحث فى أصل العالم وتكوينه بل وجه عنايته نحو الانسان وما يتعلق به — ان أعظم سعادة هى معرفة الحق ، وأن المعرفة هى الفضيلة ، ويمكن أن تُكتسب بالبحث ، وقرر أن لا أحد يعمل غير الحق بارادته ، أو يختار الباطل اذا هو علم الحق ، وعند

ما يرتكب الانسان خطأ فانما يكون ذلك بجهله بالخير له ، والحكيم العارف هو وحده السعيد الفاضــل ، وافق الرأىَ العــامَ والمأثورَ والعرف أو خالف ، لأن المعرفة هى الغاية القصوى للانسان وهى بعينها الخير والفضيلة ، أما العــدل والفضيلة الناشئان عن محض الاعتياد والتربيــة — اذا لم يعتمدا على المعرفة والنظر — فتلمسٌ فى الظلماء قد يؤدّى عفوا الى الحق ولكن ليس فيــه مقنع ، انمــا ما فيه المقنع أن تجــدّ فى البحث للوصول الى معرفة الخــير وتحديده .

وقد ذكر أفلاطون فى كتابيه « جُورْجِيَاس » و «الجمهورية» ان «كَلِيكْلِيس وثْرازِيمَاخُوس» قالا ان الخير ما يسرنا والعدل ما استطعنا الحصول عليــه ، ولكن أفلاطون (الذى يدعى أنه ليس إلا معيدا لتعاليم سقراط) أنكر رأيهما وذهب الى أن الخير والعــدل معنيان آلهيان قائمان بأنفسهما مستقلان عن الفكر ، وكانت طريقته فى البحث الأخلاقى طريقة لا مادية[1] — ومن تعاليمه أن فن السلوك انما يحصل بالجدّ فى جعل الحياة الخاصة والعامة بحيث يسود فيها الوفاق والجمــال والنظام ، وهى الصــفات الأساســية التى هى من خصائص العالم الأعلى ، وفى تقليد الخير المطلق الذى كانت النفس — التى هى جزء من النفس الكبرى للعالم — تنظر اليه وجها لوجه

---

(١) نسبة الى ما وراء المـادة .

قبل أن تحل فى الجسم[1] ويمكن نيل هذا بالمران على فضائل أربع : الشجاعة والعفة، وأهم من هذين الحكمة والعدل . ويبلغ العدل منتهى الكمال فى نظام الحكومة ، وقد أوضح أفلاطون المثل الأعلى لهذا النظام على وجه الاجمال فى كتابيه «الجمهورية» و«القوانين» .

أما أرسطاليس — سيد المفكرين على الاطلاق — كما لقبه بذلك «أُوجِسْتْ كُومْتْ» فى أحد كتبه — فابتدأ بحثه فى الأخلاق بما ابتدأ به أفلاطون، فبحث فى « ما هو أعظم خير للانسان » « وما غايته القصوى وما غرضه؟ » وكان من تعاليمه أن الانسان من بين سائر الموجودات هو الذى جمع الى قوة الشعور والرغبة قوة العقل ، وهو بحسه وادراكه يشبه الحيوان ، وبعقله يشبه الله، وباتحاد تلك القوتين فيه كان كائنا أخلاقيا ، فان الأخلاقية هى

(١) كان يغلب على فلسفة أفلاطون نظرية «المثال» فقد كان يرى أن لكل موجود مشخص فى العالم الحسى مثالا موجودا غير مشخص فى العالم العقلى ، وهذه المثل تسمى «المثل الأفلاطونية» يوضح ذلك مثلا رأيه فى الجمال فقد كان يرى أن هناك جمالا أزليا وهو معنى قائم بنفسه غير قابل للتغير (وهذا هو المثال) قد تمتعت الأرواح به قبل أن تحل فى الأجسام وما نسميه جميلا فى عالمنا هو ما فيه نفحة من ذلك الجمال الأزلى المطلق ، وكذلك قال فى الأخلاق فقد قال ان من بين هذه المثل «مثالا للخير» وكلما قرب هذا السلوك من هذا المثال وسطع عليه ضوءه كان أقرب الى الفضيلة ، وفهم هذا المثال يحتاج الى رياضة النفس وتهذيب العقل ، ومن ثم لايدرك الفضيلة فى خير أشكالها إلا من كان فيلسوفا — هذا مجمل رأى أفلاطون فى هذا الموضوع ولعله يعين على فهم ما فى الأصل (المعرب) .

الاتفاق بين عناصر الحيوان والعقل ، واستعمال كل قوى الانسان تحت سلطة لعقل ، وليس الذى يخضع لهذه الأخلاقية هو من يعيش فى عالم الفكر فحسب ، بل الذى يشغل بالعمل ويكون لرغبته وانفعالاته عليه سلطان ، ولأجل أن يختار الانسان طريق الحق وينهج النهج القويم يجب أن يستعمل قوة الحكم عنده وقوة عقله ، ويستخدم ارادته الحرة .

هذا الاتفاق بين ارادة الانسان وعقله ينتج الفضائل الأخلاقية أو السعادة أو أعظم خير ، وهذا هو غرض الانسان فى الحياة — وبينا سقراط يرى أن الفضيلة نتيجة العقل وحده ، وليست نتيجة التربية ولا العادة وانما هى ثمرة الحكمة وبُعد النظر الأخلاقى ، اذا بأرسطو يرى أن التربية والمران والعادة ضرورية أيضا فى تكوين الفضيلة ، ويحدد الفضيلة بأنها «عادة ثابتة مقررة ، ينتجها المران ويكونها تغلب العقل وهدايته » — خلف من بعد هؤلاء الفلاسفة العظام خلف كان لهم أثر فى ترقية ما قرره سلفهم ولا بد أن نخص بالذكر منهم «الرُّوَاقيِّين» و «الأبِيقُوريِّين» .

فمذهب الرواقيين أسسه «زِينُون» وكان يعلّم تلاميذه فى رواق منقوش من بناء فى «أثينا» . ومن أجل هذا سمى هو وأصحابه بالرواقيين ، وقد بَنَى « زينون » تعاليمه على قول سقراط بعدم الاعتداد بالمأثور والرأى العام ، وعلى القول بسلطان العقل على

الشهوة ، فكان يرى أن الفضيلة فيها الغَنَاء عن كل شيء ، وان الحكيم يقضي حياته في وفاق مع الطبيعة مستقلا حرا ، بين جنبيه نفس تعتز عزة ملك وان الْتَحَف ببردة فقير ، رأى الحكيم أنه لا يستطيع أن يغير الطبيعة ففضل أن يخضع لها عن رضاء ، ولم يفعل كما يفعل الأخرق ينازل الطبيعة ويكافحها حتى يفقد قوته ويدركه الأعياء فيخر صريعا ، والرواقي[1] مستسلم لا يهيجه شيء لأنه يعتقد أن كل شيء قَدَّرته الطبيعة ، وهي رحيمة عادلة تريد الخير .

أما أبيقور (٣٣٧ أو ٣٤١ — ٢٧٠ ق م) فكان يُعلّم أن لا خير للانسان إلا اللذة ، والعقل يساعده على تحصيلها — وكان أبيقور كسائر فلاسفة اليونان يسلم بأن الأخلاقية[2] والسعادة مترادفان ، وأن فن السلوك[3] فن يعلّم الانسان كيف يُرْوِى نفسه باللذائذ ، وعنده أن لا معنى للأخلاقية إلا الفهم الصحيح لفائدة الانسان الشخصية وبعبارة أخرى الأَثَرَة (الأنانية) المهذبة . واذا ضحى الانسان بنفسه

(١) والغربيون الآن يطلقون اسم «رواقي» على من اعتاد أن يقابل كل الأشياء بهدوء وطمأنينة رغم ما يحيط بها من خطر وألم (المعرّب) .

(٢) استعملنا كلمة « أخلاقية » ترجمة لكلمة (Morality) ونعنى بها الصفة التي في الشيء ومن أجلها يحكم عليه بأنه خير أو شر فاذا قلنا أخلاقية العمل أو الانسان أو الأمة فانما نعنى الصفات التي يتصف بها العمل أو نحوه ويحكم عليه من أجل اتصافه بذلك — بأنه خير أو شر ، وقد يستعملونها في معنى أضيق فيقصرونها على الصفات الحسنة فقط التي يتصف بها العمل فيحكم عليه بأنه خير وبهذا المعنى استعملت هنا (المعرّب) .

(٣) يقصد بفن السلوك الجزء العملي من علم الأخلاق .

أو آثر غيره بشيء فليس معنى ذلك أنه يعمل على خلاف طبيعتــه أو يعاكس رغبته فى اللذة المتأصلة فى أعماق نفسه ، بل أنه انمــا يفعل ذلك لمــا عنــده من قوة التفكير، ذلك لأنه لمّــا كان عاقلا كان فى استطاعته أن يرفض لذة وقتية عاجلة للحصول على لذة أكبر منها آجلة، وان اللذائذ السريعة الزوال والانهماك فى الترف لا تعدّ شيئا اذا قيست بتلك اللذة الباقية — لذة العقل — التى بها تطمئن النفس، ومنها تتخذ عدّة لحوادث الدهر وصروف الزمان .

واذ كان بعض اللذائذ يعقب ألمــا كان لا بدّ من تنظيم رغبتنا فى اللذة بالحزم ومن ذلك تنتج جميع الفضائل ، فان صحة البــدن واطمئنان العقل أعظم ســعادة فى الحياة، وهما نتيجة ما ذكرنا : ”ونحن لا نســتطيع أن نحيا حياة لذة ما لم تكن حياة حزم وشرف وعدل، كما أنا لا نستطيع أن نحيا حياة حزم وشرف وعدل ما لم تكن حياة لذة“ وقد نُضْــطَر أحيانا الى تحمــل ألم وقتى للحصول على لذة مستمرة، وليس يعنى أبيقور باللذة الاحساسات الوقتية التى تفنى بفناء ظرفها، وانما يعنى السكينة والعيشة الراضية التى فيها نأمــن عواصف الحياة[1] .

---

(١) غلط بعض الناس فى فهم مذهب أبيقور فظنوه يدعو الى الانهماك فى اللذات الجسمية والجرى وراء الشهوات حتى أطلقوا «أبيقورى» على الداعر المولع باللذات الجسمية (المعرّب) .

ولما لم يكن من طبيعة نفس الانسان الاقتناع بالفلسفة طويلا جاء الدين فحل محلها ، وقام الأولياء والقديسون مقام الشعراء والفلاسفة اليونانيين، وأثارت النصرانية ثورة لم يشهد الانسان قبلها مثلها، فغيرت الأفكار تغييرا تاما حتى لم تستطع عقائد اليونان أن تقف أمام سلطانها، ونبذت أكثر التعاليم الاخلاقية التى وضعها قدماء الوثنيين، فكانت النصرانية كما قال «نيتشه» : «مقوِّمةً للأشياء من جديد» .

وقد عممت النصرانية — الى حدّ ما — تعاليم اليهودية ونشرت فى المغرب أصول الأخلاق التى وردت فى التوراة، والأخلاق عند اليهود آلهية المنشأ، فالمبادئ الأساسية فيها دينية وليست الأخلاقية إلا نتيجة أمر الله ومن فيضه، وبعبارة أخرى هى تنفيذ أمر الله، نعم أن الانسان محتاج الى قواعد وقوانين تنظم سلوكه ولكن لا يشرِّع هذه القوانين والقواعد إلا الله . وهم يرون أن الخير الأخلاقى وارضاء الله لا ينفصلان ، وأن فروض الله والقوانين الأخلاقية متلازمان ، وليس الشيء أخلاقيا لأن الله أمر به ، بل الله أمر به لأنه أخلاقى ، فان الأخلاقية هى المركز الأساسى ومطمح نظر العالم قال « هِرْمَنْ لُوتْزْ» الفيلسوف الألمانى العصرى فى كتابه الشهير « العالَم الصغير » : " ان العبرانيين — على ما يظهر لنا الآن — كانوا بين الأمم الشرقية المحكومة بحكومة

دينية كالصاحى بين قوم دبت فيهم الكاس، وتال منهم الشراب، وان كانوا فى القـديم قد عُدُّوا كالحالمين بين العاملين ، وان التعهدات والالتزامات الأخلاقيــة التى يرقّى الشعورُ بها الأعمالَ الاجتماعية كانت فى اليهودية تحصر فى إرادة الله، و إرادة الله يجب أن ينفذها الشخص و يمجدها فى سره وجهره، بل كذلك الأمة — من حيث هى أمة — يجب أن تنفـذها وتمجدها بخضـوعها فى حياتها الحكومة ونظم دينية " .

من أهم المبادئ حب الله و إطاعته ، وحب الإنسان، وهى مبادئ تتطلب التحلى بفضائل كالعدل والاحسان، و بينا نرى علم الأخلاق عند اليونان يعـدّ الغاية القصوى للانسان كمال شخصه ، باسـتعمال كل قواه وملكاته الطبيعية حتى يصـل الى السـعادة ، إذ نرى الأخلاق النصرانية تطلب من الانسان السعى وراء طهارة النفس فى الفكر والعمل ، وتجعـل للروح سلطة مطلقـة على البدن وعلى الشهوات الطبيعية ، وهذه لروحانية أدّت الى انكار حقوق البدن، واعتزال هـذا العالم ، ونبذ الحياة الطبيعية واحتقارها، كما أدّت الى الزهد والتنسك والرهبانية، ومحالفة الفقر ، وتحمل الآلام البدنيــة ، وعلى الجملة فقــد أدّت الى « حياة غير طبيعية » — وشىء آخر جديد وهو عقيــدة « النجاة بالغفران » وهى مبنية على أن الانسان آثم بطبيعته ، وليس فى استطاعته الوصول الى النجاة

بقوّته وجِدّه، وإنما ينال النجاة بالغفران ، وذلك الغفران تمنحه الكنيسة بطريقة استبدادية محضة، وبذلك انهارت أصول التعاليم والعقائد التى وضعها مؤسس المسيحية بالأغلاط التى ارتكبها أتباعه، وأصبحت الآن الرسوم والمظاهر الدينية فى النصرانية واليهودية أهم بكثير من الأخلاق وطهارة الحياة فى الفكر والعمل، وقد كان انما يقصد من هذه الرسوم والمظاهر فى الأصل أن تكون رمزا .

٧ — أما الأفكار الأخلاقية الحديثة فيرجع أصلها الى « مَا رتِن لُوثَر» ذلك الراهب الشجاع الذى ظهر فى « وتنبرج »(١) وتمتاز بميلها الى « الواقع » والحقيقة لا الخيال، وترى أن غرض الانسان هو اظهار كل ما فيه من قوى وملكات بالحياة العملية فى هذا العالم؛ وعلى هذا بنيت الفلسفة الأخلاقية الحديثة ولا سيما المذهب الانجليزى فيها ، وانفصلت الأخلاق بالتدريج عن الدين وصارت علما فلسفيا ، ومن أكبر من بحث فى هذا الفرع من الفلسفة لُوكْ وهُوبْز وشافْتْسبِرى وهَتْشُسون وهْيُومْ وآدم سِمْث فى انجلترا واسكتلندا — وسْبينُوزا ولَيْبْنتزْ ووُلْف فى ألمانيا . وسنذكر الموضوعات التى أثاروها، والمسائل التى بحثوها فى فصل تال يبحث فى المذاهب الأخلاقية، وقد جاء « كانت» بكتابه « نقد

(١) وتنبرج بلدة ببروسيا على نهر ألب .

العقل المجرد» سنة ١٧٨٨ م فوجه البحث الأخلاقى وجهة جديدة، ذلك أنه قرر أن الانسان يحمل بين جنبيه وفى نفسه منبع القانون وروح الأخلاق، وهذا الروح الأخلاقى مستقل عن التشريع ولا يستمد أى شىء من الخارج ، ويسمى هذا المبدأ الأخلاقى المستقل « بالآمر المطلق »(١) ونحن اذا أخضعنا إرادتنا لهذا الروح الأخلاقى الذى فينا ولذلك الآمر المطلق ولو خالف ميولنا فقد أدينا ما علينا من الواجب وسرنا سيرا أخلاقيا، وخلف « كانت » «نِخْتَه» وجاء «هِجِل» و « شِلَرْمَاخَر» وشُو بِنْهورَ وفِرِيدْرِيكْ نِيتْشَه ودَارْوِنْ وجُونْ سْتوَارْتِ مِلْ وهِرْبَرْتْ سْبِنْسَر فظلوا يعملون على ترقية المسائل الأخلاقية ويضعون نظريات جديدة من عندهم .

---

(١) ربما كان فيما حكى عن مذهب « كانت » غموض، ولتوضيح ذلك نقول ان « كانت » يقول ان العقل فى الانسان هو أساس الاخلاقية « ولسنا فى حاجة الى تعلم قواعد للسلوك تكتسب من الملاحظة والتجربة والتربية بل أن عقلنا يعلمنا ويأمرنا فورا بما ينبغى أن نعمل» وذكر مبدأ سماه «الآمر المطلق» أى الذى لا استثناء فيه وهو « اعمل دائما العمل الذى يمكنك أن تريد أن يكون عاما » أى اعمل ما تحب أن كل أحد غيرك يعمله وقال ان هذا المبدأ يحمل سلطانه معه أى أنه فى نفوس الناس وطبيعتهم ومنه يمكننا أن نستنتج كل ما ينبغى أن يعمل كتسديد الدين وبذل المعونة عند الشدائد والصدق وهكذا (المعرب) .

الفصل الثامن

علم الاجتماع (سسيولوچيا)

١ — «ليس خيرا للانسان أن يعيش وحده» ولا نعيم الجنة نفسه يلطف وحشة الوحدة . بل ومعيشة الانسان وحده ضد طبيعته ، وهو محتاج الى بنى جنسه لسد حاجاته الطبيعية ومعاونته على ضروريات الحياة ، ولهذا اجتمع معهم وتعارف بهم وحالفهم . وانا اذا تتبعنا تاريخ الانسان من أقدم عصوره لوجدناه فى أى زمان ومكان يتجنب الوحدة و يألف الاجتماع ، فيعيش فى جملة جمعيات : فى أسرة ، وفى فصيلة ، وفى عشيرة ، وفى قبيلة أو أمة ، و يشترك مع غيره فى أنواع شتى من العمل ، و بعدُ فما ظروف الأحوال التى اقتضت اجتماع الناس و بأى شكل كان اجتماعهم؟ ما أنواع الأعمال التى يشترك فيها الإنسان مع غيره ؟ كيف يؤثر الناس بعضهم فى بعض؟ ما أنواع العلاقات التى بينهم؟ وأخيرا ما القوانين التى بها ترقى الحياة الاجتماعية ؟ هذه الأبحاث التى تفيد الانسان أعظم فائدة كما قال « كُومْت » هى التى تسمى « علم الاجتماع » .

ولئن كان من فروع الفلسفة ما يبحث فى أصل الكائنات وعللها ومبادئها (كعلم ما بعد الطبيعة) وما يبحث فى الانسان من حيث

شخصه ، فيبحث فى أصله وعلاقته بسائر الحيوانات (كعلم الانسان ـ الانثربولوچيا) وما يبحث فى أعمال روح الانسان من حيث هو كائن ذو شعور ، وفى سعيه وراء معرفة نفسه (وهو علم الأخلاق والنفس) فهناك ما يبحث فى الانسان من حيث علاقته بالمجتمع الذى فيه ولد ، كما يبحث فى الظواهر التى نشأت عنها المعيشة الاجتماعية ـ وهذا هو علم الاجتماع ـ فهو ذلك النوع من البحث الذى يشمل علم الجمعية والاجتماع أو الانسانية مجتمعة ، وان شئت فقل الإنسانية موحدة أو مؤلفة من وحدات الأفراد الذين توثقت الرابطة بينهم على نحوٍ ما ، وهو ينظر الى مجموع النوع الانسانى على ماهو عليه وكما كان وكما سيكون ، ويوضح أعمال الجمعية البشرية وتفاعل القوى الاجتماعية . وبعد أن يستكشف القوانين التى بها ترقى تلك القوى يجتهد فى تنظيمها لخير المستقبل ، ويمكننا الآن أن نقول أن علم الاجتماع يحاول استكشاف القوانين والمبادئ وسر الظواهر الاجتماعية ويستخدم ذلك فى خير الانسان .

٢ ـ وأول من استعمل كلمة «سُسْيُولوچيا» للدلالة على علم الاجتماع « أوجست كومت » وهى مركبة من « سوسيس » كلمة لاتينية معناها الجمعية و «لوچوس» كلمة يونانية معناها علم ،

وقد كان علم الاجتماع سابقا على اسمه هذا [١]، ولم يكن علم الاجتماع — كما هو الشأن فى كل العلوم الأخرى فى طورها الأول — علما نظريا محضا، بل كان يبحث أيضا فى مسائل عملية عرفت باسم «علم السياسة» وقد قيد أفلاطون آراءه فى الحكومة وأشكالها وأوضح المثل الأعلى [٢] لها فى كتابيه «القوانين» و «الجمهورية» وحدد الغرض الأخلاقى للحكومة كما ارتآه، وجاء أرسطو فلم يعتقد بالمثل الأعلى للحكومة، ولا بالعصر الذهبى الذى حلم به أفلاطون، واجتهد فى كتابه «علم السياسة» أن يحلل أشكال الحكومة التى كانت فى عهده، وقسمها من حيث عدد حكامها الى ثلاثة أقسام: حكومة ملكية، وحكومة أرستقراطية، وحكومة شورية [٣] — وتدرج

---

(١) كان «أوجست كومت» أول من بحث فى الاجتماع فى العصور الحديثة وكان يسمى هذا النوع من البحث عند اليونان «الحكمة العملية» وقد اعترض على «كومت» معاصروه عند وضعه نظريات لهذا العلم بأنه لا يمكن وضع نظريات ثابتة له لأن الانسان ذو ارادة حرة لا تجرى فى أعمالها على قوانين معينة ثم ظهر بطلان هذا الاعتراض ودون للاجتماع قوانين برهن على صحتها (المعرّب).

(٢) المثل الأعلى ترجمة لكلمة (Ideal) ونعنى بها أكمل صورة فى ذهننا للشىء يرادا حتذاؤها فاذا قلنا المثل الأعلى للامة فانما نعنى أكمل صورة فى ذهننا للامة نريد أن نكون عليها يوما ما وهكذا (المعرّب).

(٣) عند أرسطو اذا كانت القوة المسيطرة على الأمة فى يد فرد واحد تسمى الحكومة ملكية (Monarchy) واذا كانت فى يد جماعة قليلين من الاشراف سميت الحكومة أرستقراطية (Aristocracy) واذا كانت فى يد الشعب فالحكومة شورية (Polity) — (المعرّب).

أرسطو من القول بأن « الانسان مدنى بالطبع أو حيوان سياسى» أعنى أنه فى طورى سذاجته ورقيه لا يستطيع أن يعيش وحده ، بل لا بد له من الاجتماع ، الى القول بأن النظام الحكومى للأمة نتاج طبيعى. قال « كُومْت » : "ان مافنّد به أرسطو ما لأفلاطون ومقلديه من أوهام باطلة فى موضوع الاشتراك فى الملكية برهن على ما لأرسطو من سداد فى الرأى وذكاء، وقوةٍ لا تسبق وقلما تُبَارَى " .

ولم يزد فلاسفة الرومان شيئاً فى النظريات السياسية عما كان لليونان، وفى القرون الوسطى كان للدين على النفوس نفوذ عظيم ، وشُغل الناس بالقضايا الدينية ، حتى لم يبق لهم زمن للنظر فى الموضوعات الاجتماعية ، الى أن جاء زمن « النهضة » فكان للناس بعدُ عناية خاصة بالمسائل الاجتماعية (وبحثوا فيما وصل اليه من قبلهم وزادوا عليه) فمسائل « الحقوق الطبيعية » مثلا بحث فيها قدماء لفلاسفة والمشرعين ، ومما جاء فى قول تَيشرون (الخطيب الرومانى) « ان السلوك العام هو قانون الطبيعة » أى أن اتفاق كل الناس على شيء يجب أن يعدّ قانون طبيعة ، وفرق "أُلْبِيَان" (المشرع الرمانى) مثلا بين « الحق الطبيعى» و « الحق المكتسب من القانون» — قانون الأمة — فلما جاءت النهضة خَطَت هذه القضايا خطوة خرجت بها من دائرة النظر الى السياسة

العملية، وكان «هوجو جروتيس» أول من بدأ بالبحث في «الحقوق الطبيعية والوضعية»[1] ولذلك يعدّ مؤسس «فلسفة القانون».

جاء بعده «توماس هوبز» وكان مما كتبه «رسالة في الجبر والاختيار» بحث فيها أبحاثاً أخلاقية، وأبحاثاً فيما وراء المادة، وقرر فيها أن الانسان — كسائر المخلوقات — مجبور خاضع للقدَر، وبعبارة أخرى لارادة الله، وأن المصلحة أو الفائدة الشخصية أعلى قاض يفصل في الأخلاق وفي أى شيء آخر، وقد طبق نظرياته هذه على السياسة، فعنده أن نظام الطبيعة نظام حرب عام، كلٌّ يحارب كلا ليبقى «والحق» «للقوة» — ولمحافظة الانسان على نفسه، ووضع حدّ لهذا النزاع، وتلطيف نظام الطبيعة بالاجتماع تعاقدَ الناس فيما بينهم نوع تعاقد على انشاء «حكومة»، وليس القصد منها إلا حماية حياة الأفراد وملكيتهم. فيجب على الأفراد أن يعدّوا إرادة الحكومة أسمى قانون، ولا تستطيع الحكومة الوصول الى تحقيق غرضها إلا بخضوع الرعية خضوعا تاما، ومن أجل هذا يعدّ «هوبز» مؤسس نظرية «العقْد».

---

(١) يعنون بالحقوق الطبيعية الحقوق التى منحها الناس من طبيعتهم وليس القانون الوضعى هو المانح لها وبعبارة أخرى الحقوق التى للانسان لأنه انسان وكانت للانسان قبل أن تكون قوانين أما الحقوق القانونية أو الشرعية أو الوضعية فالحقوق التى منحتها له القوانين الوضعية فحق الانسان فى الحياة أو فى الحرية حق طبيعى وحقه فى أن يملك بالشفعة وفى أن ينتخب اذا بلغ سنا معينة حق قانونى (المعرّب).

وذهب «مُونْتِسْكيُو» فى كتابيه : «عظمة الرومان وانحطاطهم» و «روح القانون» الى أن الظواهر السياسية — كسائر الظواهر الطبيعية — خاضعة لقوانين لا تتغير قال «كومت» : "ان مونتسكيو كان يرى أن الأبحاث والأعمال الاجتماعية مبنيـة على قوانين طبيعيـة ، على حين أن غيره من كبار الرجال كانوا يرون أن فى استطاعة المشرعين أن يعدلوا نظام الحكومة كما يريدون ، وأن عندهم على ذلك قدرة مطلقـة غير محدودة متى أعانتهم السلطة على ذلك" ووافق «چان چاك روسو» فى كتابه «العقد الاجتماعى» ماذهب اليه «هوبز» من أن الحكومة نتيجة تعاقد الناس فيما بينهم .

الفصل التاسع

مجمـــل تاريخ الفلســـفة

أو تاريخ ترقى الفلسفة

١ — ليس من غرضـنا فى هـذا الكتاب أن نذكر قضايا الفلسفة فى شكل تاريخ ، وإنما غرضنا أن نقدّم للقارئ المهذب معلومات عامة عن أصول الفلسـفة وقضاياها ، وانا لانبعـد عن الغرض اذا نحن زدنا تاريخًا إجماليًا يوضح الرقى التدريجى لقضـايا

الفلسفة من زمن الفلاسفة الأيونيين الى القرن العشرين بعد الميلاد ، وسيكون هـذا التاريخ الاجمالى مختصرًا جهد الطاقة فلا نتعرض لتفاصيل المسائل الفلسفية التى ناقشها وبحث فيها كثير من المفكرين ، وانما سنستعرض بالاجمال المميزات الخاصة للعصور المختلفة ، ونعين الروح الغالبة عليها ، وانه لمن المستحيل أن نبين بالتفصيل كل النظم والآراء الفلسفية ، بل ولا ما هم منها ، ولا أن نسرد كل المذاهب ومؤسسيها ، فان الموضوع واسع الأطراف ، ومسائله فى غاية التعقيد حتى أن محاولة تفصيلها تفوت الغرض من هـذا التاريخ الاجمالى ، وهو أن نقدم للقارئ صورة عامة عن نظام الفلسفة ، مع ما فى ذلك الموضوع من سعة تحير الألباب ، ولا يصح أن يقارن تاريخ الفلسفة بغيره من تواريخ العلوم الأخرى لسببين : (أولهما) أن مدار البحث فى العلوم الأخرى محدود ، فلا تعترض صعوبات غير عادية فى تتبع الرقى التدريجى ، وكذلك بناء العلم على بعض القواعد الأساسية واضح فى كل العلوم ، وليس كذلك الشأن فى الفلسفة ، فقضاياها على كثرتها متنوعة وليس موضوعها واحدًا فى كل العصور ، ومما يزيد الأمر صعوبة أن كل مفكر يأتى لا يبنى على ما وصل اليه من سبقه بل يبتدئ فى حل قضيته من جديد ، كأن لم تكن قبله نظم ولا وضع قبله أساس (انظر فندلبند صفحة ٩) . (وثانيهما) أن ترقية الأفكار وتأسيس العقائد إنما

يكون على يد مفكرين ذوى شخصية ، وهؤلاء وان كانوا مرتبطين فى أفكارهم بأفكار من تقدّمهم — يزيدون عناصر خاصة من عندهم متأثرة بشخصياتهم وهـذا فى الفلسفة أهم منه فى العلوم الوضعية الأخرى، فمن البديهى أن أخلاق الشخص وتجاربه وأعماله فى الحياة ومنشأه وتربيته ، تؤثر أثرًا كبيرًا فيما يضع من القضايا المعنوية المجرّدة ، وفى فكرته العامة نحو العالم، وتطبع ما يرى وما يفكر فيه بطابع خاص .

من هـذا كله ينتج أن تاريخ الفلسفة ليس إلا جمعًا متسلسلا لكل الآراء الأساسية التى وضعها هؤلاء الأفراد ذوو الشخصية وأنظارهم الى العالم وأحكامهم على الحياة، مع بيان مازاده كل من عند نفسه — ويجب ألا يقتصر فى تاريخ الفلسفة على شرح نظام الفلسفة والتئام أجزائها بعضها ببعض، بل يجب أن يشمل أيضًا شرح نموّها وتدرّجها فى الرقى .

وواضح أنه كلما ترقى الفكر وتقدّم الانسان واتسعت دائرة المعارف كانت الآراء أغزر، هـذا الى أنه قد تعرض قضايا على بساط البحث مرة ثم تعرض هى بنفسها مرات أخرى، وفى كل مرة تبحث بطريقة جديدة تخالف الطريقة التى بحثت بها من قبل .

ومن حين الى حين تزيد دائرة العقل الانسانى اتساعا، فتنهض موضوعات جديدة، وتقرر قضايا جديدة، وتجاب أجوبة جديدة،

ويستكشف الخلف حلا لمسائل مفيدة لم يهتد لحلها السلف، مع ما لكل عصر من عصور التاريخ من طابع خاص لا يشاركه فيه غيره — وانّ نظرة سطحية لتكفى فى إقناع القارئ بأن القضايا تزداد تركبا وتعقيدا كلما تقدّمت المدنية والتهذيب بتقدّم العقل البشرى .

ويمكننا أن نقسم تاريخ الفلسفة الى العصور الكبرى الآتية، ولكل عصر منها — كما قدّمنا — مميزات خاصة وطابع خاص :

(١) الفلسفة اليونانية .

(٢) الفلسفة الرومانية اليونانية .

(٣) الفلسفة فى القرون الوسطى .

(٤) الفلسفة الحديثة .

٢ — ان اليونانيين وان كانوا يعزون فلسفتهم فى كثير من الأحيان الى حكمة كهنة المصريين، وانه وان كان أيضًا فى كثير من فروع العلم كالرياضة والهيئة والطب لمدنية الشرقيين وخاصة مصر أثر فى العقل اليونانى، فانا لا يعترينا شك فى أن أصل الفلسفة هو نتيجة عقل اليونانيين ومطبوع بطابعهم — نعم ان التفكير فى هذا العالم وظواهره وفى أصل الانسان والغرض من وجوده قديم العهد قدم الفكر الانسانى نفسه، وأن الانسان أخذ يفكر

فى معانى الأشياء قبل اليونان بزمن طويل، وان جملة من مسائل العلم التفصيلية لا يستهان بها قد جمعت فى عهد المصريين والبابليين قبل اليونان، ولم يكن يعوز هؤلاء القدماء علم غزير بالموضوعات المفردة ولا بالنظر العام للعالم، ولكن اليونان استخدموا معارف من قبلهم، وكما قال «جُومْبِرْز» : "أن النبوغ اليونانى استطاع أن ينهض من على عاتق المصريين ولبابليين ويطير حتى يصل الى أسمى مكان يمكن الوصول اليه من غير أن يصدّه عن ذلك صاد" قد كان للأمم الشرقية علم بما يتعلق بحاجاتهم العملية ولكن ذلك العلم كان بقدر ما يسمح به قصور العقل الشرقى، فانه يعوزه النشاط العقلى الذى يحمل على الابتكار . حتى أتى اليونان فرقوا النظر العلمى وبحثوا فى العلم بحثاً منظماً مستقلا، وطلبوا لعلم للعلم لا لشىء وراءه (انظر فندلبند ص ٢٣) — زار فِيثَاغُورْس ودِيمُقْرِيطُس وأفلاطون وغيرهم مصر وآسيا الصغرى وانتفعوا بعلم أهلهما ، ولكن رقى الفلسفة رقياً علمياً كان من عمل العقل اليونانى . وقد قال أفلاطون ان ميزة ليونان حب البحث» أما ميزة المصريين والفينيقيين لحب الكسب ، ونوه بما لهما من مقدرة فى الصناعة وحذق فى النظم السياسية ، ولكن لم يعترف لهما بشىء من ذلك فى المذاهب الفلسفية (انظر الفصل الأول من تاريخ نشوء الفلسفة اليونانية لمؤلفه برنديس ص ١٣) .

٣ — تتجلى للانسان فى فلسفة اليونان ثلاثة عصور يسهل تميز بعضها عن بعض، وهذه العصور توضح لنا الرقى التدريجى الذى يتبعه العقل فى طور الحضارة، ولست أعنى الحضارة الاغريقية فحسب، بل كل حضارة بشرية، وهذه العصور هى : (١) النظر فى الكون . (٢) النظر فى الانسان نفسه . (٣) البحث المنظم، فأوّل بحث شغلت به الفلسفة اليونانية الأولى كان البحث فى العالم كما يظهر أمام الانسان أعنى عالم الطبيعة .

كان فلاسفة اليونان الأوّلون علماء فى الطبيعة، يضعون فروضا لتفهم تصرفات الطبيعة وسنة الكون فى الرقى . بدءوا يبحثون فيما يتعلق بحياتهم العملية فأداهم ذلك الى الرغبة فى معرفة الطبيعة نفسها قال «فندلبند» : " ان علم اليونان خصص حياته الأولى وما لها من قوّة شباب لدرس قضايا الطبيعة ، وأغفل البحث فى أعمال الفكر، واكتفى بالبحث فى العالم الخارجى" فكان أهم ما اهتمت به تلك الفلسفة مسائل الطبيعة والفلك والجغرافيا، وعلى الخصوص الظواهر الأساسية العظمى، ثم تدرّجوا بعد ذلك فى البحث، فلم يقصروا نظرهم على الأعمال الطبيعية المادّية بل حاولوا معرفة الأساس الذى يطرأ عليه التغير — والبحث فى التغير ومعرفة أساسه هو المحور الذى تدور حوله النظريات الفلسفية، ويشمل أعظم القضايا الأساسية التى يبحث عنها علم ما بعد

الطبيعة، وهذا التغير — أعنى أن الأشياء يتحوّل بعضها الى بعض — هو الذى بعث على التأمل والنظر، وحمل فلاسفة اليونان على الجدِّ فى تقرير قواعد لهذا العالم القُلَّب الحُوَّل الذى قد تتغير فيه الأشياء فجأة الى أضدادها (فندلبند ص ٣١) .

بحثت الفلسفة عن الأساس الذى تطرأ عليه التغيرات، وتعتريه التقلبات، والذى منه تخلق أشخاص الأشياء واليه تعود (ص — ٣٢) وصيغ هذا المعنى بوضوح فى الأسئلة الآتية : "ما أساس الأشياء الذى يبقى مع كل التغيرات العارضة ؟ وكيف يتحوّل ذلك الأساس الى تلك الأشياء؟ وكيف تتحوّل الأشياء اليه؟ ولحل هذه المسألة وتقرير طبيعة أساس الدنيا أو هيولى العالم أو مادّته قامت نظريات عديدة وضعها فلاسفة اليونان الأولون مثل «طَاليس» و «أَنَكْسِمَنْدَرْ» و «أَنَكْسِمِينِس» و «هِرَقْلِيطُسْ» والإيليون[(١)] والفيثاغوريون وظهرت أنظار عديدة تتعلق بذلك الوجود وما يصير اليه وبمادة العالم ونحو ذلك" .

٤ — بعد هذا تحوّل الفكر اليونانى والأبحاث الفلسفية عند اليونان تدريجًا الى الانسان نفسه، فكانت أعماله موضع البحث، وأغفلوا البحث فى العلم الطبيعى الذى كان قبلُ موضوع الفلسفة،

---

(١) الايليون نسبة الى إيليا وهى مستعمرة كانت اغريقية فى جنوب إيطاليا .

واتجهت أبحاثهم نحو قوى الانسان الباطنة، فبحثوا فى القوة المفكرة والقوة المريدة وعمل هاتين القوتين، أعنى التفكير والارادة، وكيف تنشأ الفكرة والارادة — وفى ذلك الحين ظهرت فى عالم البحث مسألة جديدة وهى هل حقائق الأشياء ثابتة ، وهل هناك شيء حق أو صواب أو خير قائم بنفسه لاعلاقة له بآرائنا الشخصية ، وفى هذا العصر أيضا — الذى يسمى العصر الانسانى أو الانتروپولوچى — نظرا لاتجاه بحثه نحو الانسان وتمييزا له عن العصر الذى قبله — عصر النظر الى العالم — ظهرت مبادئ القضايا الأخلاقية والمنطقية والنفسية «السيكولوچية» ومن رجال هذا العصر سقراط والسوفسطائيون الذين من أشهرهم بُروتَاغُورَاس وهِبيَاس وبُروديكُوس . وقد وافق سقراط السوفسطائيين فى توجيه بحثه نحو الانسان وخالفهم بقوله أن حقائق الأشياء ثابتة اذ كانوا ينكرون ذلك، وحاول — بالبحث العلمى — تقرير مبادئ ثابتة يؤسس عليها سلوك الناس ومعاملتهم الأخلاقية، وقد أسست على مبادئ سقراط مذاهب ظهرت بعدُ أشهرها مذهب الميغاريين[1] .

---

(١) الميغاريون نسبة الى مغيارى (Megaris) مقاطعة كثيرة الجبال فى بلاد اليونان فتح فيها أقليدس مدرسة لتعليم الفلسفة واشتهرت مدرسته بكثرة الجدال والسفسطة التى كانت المدرسة تخترعها لتمرين تلاميذها وكان أقليدس نفسه سوفسطائيا ماهرا وسميت شيعته بالميغاريين وأقليدس الميغارى مؤسس هذا المذهب ولد سنة ٤٤٠ ق م وهو غير إقليدس الرياضى المشهور (المعرّب) .

أسسه إقليـدس ومذهب الكلبيين[1] أسسه أَنْتِسْثِنِيسْ ومذهب القُورِينَائِيِّين[2] أو مذهب السعادة أسسه أَرِسْطِبسٌ .

٥ وقد كان هذان النوعان من البحث الفلسفى أعنى البحث فى العالم والبحث فى الانسان مقدّمة لأعظم رقى للفكر اليونانى، وقد ظهر ذلك الرقى فى عصر البحث المنظم، وبلغ أَوْجَهُ فى النظم الفلسفية التى وضعها دِيمُقْرِيطُس وأفلاطون وأرسطو — ففى الدورين

(١) لكلبيون (Cenic) كانوا يرون أن الآلهة منزهة عن لاحتياج وخير لناس من تخلق بأخلاق الله فقلل من حاجاته جهد لطاقة وقنع بالقليل وتحمل لآلام واستهان بها واحتقر الغنى وزهد فى اللذائذ وان افقر ولعمل لشاق المؤلم وسوء السمعة أمور نافعة تسهل للانسان تحصيل الفضيلة وتعينه على نيل الحرية ومن أجل ذلك زهدو فى اللذائذ ولم يحترموا عرف الناس وما تواضعوا عليه ولا قوانين البلاد انما يحترمون ما تمليه عليهم الحكمة ولعقل ولما كانوا لا يحترمون عوائد لناس ويرتكبون ما يتحرج الناس من فعله من غير خشية ولا احتشام وكانوا فى ذلك كالكلاب أطلق عليهم أهل زمانهم اسم الكلبيين (المعرّب) .

(٢) القورينائيون (Syrenaic) نسبة الى قورينا (مدينة شمالى إفريقية من مدن برقة) كان اسمها عند ليونان سيرين (Syrene) فعرّبها اعرب قورينا ولد بها مؤسس المذهب أرسطبس فنسب المذهب اليها وقد سماهم البستانى فى دائرة المعارف القيروانيون ظنا منه أن القيروان اسم لسيرين وهذا خطأ فان القيروان مدينة فى تونس بعيدة جدا عن سيرين وورد الاسم صحيحا فى أخبار الحكماء للقفطى فقد قال «وأما الفرقة المسماة من اسم البلد الذى كان فيه لفيلسوف فشيعة أرسطبس من أهل قورينا» وقال فى موضع آخر « وكان أصحابه يعرفون بالقورينائيين نسبة الى البلد» ومذهبهم على الضد من الكلبيين فانهم يرون أن اللذة والخلو من الألم هما الغاية الوحيدة الصحيحة للحياة وليس لعاقل من يميت شهوته بل من يحييها و ينيل نفسه ما تمنى من الملذات ما لم تستتبع ألما (المعرّب) .

الأولين — دورى البحث فى الكون والانسان — كان مدار بحث الفلاسفة مقصورا على عدد محدود من المسائل، أما فى دور البحث المنظم فقد كان مدار البحث أوسع ، وشمل القضايا الطبيعية والنفسية ، وقد استعمل عظماء هذا الدور مثل ديمقريطس وأفلاطون وأرسطو ولا سيما الأخير — معارف من قبلهم . وبحثوا الأشياء من جميع جهاتها بحثاً علمياً ووجهوا نظرهم إلى البحث فى كل المسائل العلمية فأخرجوا للناس علماً منظما شاملا كاملا، قال فندلبند : " ان تنظيم العلم وتوسيع نطاقه حتى يشمل كل النظريات الفلسفية منزلة أمكن لديمقريطس وأفلاطون وأرسطو أن ينجحوا فى الوصول إليها، وكان الأخير منهم أول من قسم العلوم وجعل لكل علم دائرة بحث خاصة ، ومن أجل هذا يعدّ أرسطو خاتمة عصر نشوء الفلسفة اليونانية وفاتحة عصر العلوم المتميزة[1] وأرسطو هو الذى لخص الأفكار اليونانية وصفّاها ، وأخرج للناس نظاما للفلسفة كاملا ، وبحث فى كل فروعها ، أعنى ما وراء المادّة والمنطق وعلم النفس والأخلاق والسياسة والجمال .

---

(١) نعنى بالعلوم المتميزة العلوم التى خصص كل علم منها لبحث خاص ولم يكن هذا هو الشأن عند اليونان فى العصور الأولى بل كانت موضوعات العلوم ممزوجا بعضها ببعض (المعرب) .

٦ — العصر الثانى العظيم من عصور الفلسفة عصر الفلسفة الرومانية اليونانية[١] وبهذا العصر انتهى دور البحث المنظم . وابتدأ الميل إلى وضع الشروح المطولة ، وأهم مميزات هذا العصر أنه عصر تحصيل للعلوم وسعة فى الاطلاع أكثر منه عصر بحث ونظر ، وانه عصر إقبال على العلوم المتميزة ، واذا كانت الفلسفة فيه قد اتخذت شكلا جديدا استمرت فيه بضعة قرون فذلك ناشئ من حالة الرقى العامة ومن التغير الذى أحدثته الحياة السياسية والاجتماعية اليونانية .

كان اليونان قد نضجت عندهم الآداب والفنون لما أن وصل الاسكندر الأكبر الشرق بالغرب ، وأزاح الفواصل بينهما ، وأقام جسرًا عبرت عليه المدنية والعلوم والمعارف من بلاد اليونان الى آسيا وانتشرت فيها ، ولكى يخلد اسمه أنشأ مدينة (الاسكندرية) واختار لها ببعد نظره الفائق موضعًا على أحد شواطئ النيل[٢] أصبح لحسن موقعه الجغرافى محطة بين آسيا وأوربا ومركزًا للتجارة بين الأمم كما كان مركزًا كذلك للعلوم والمعارف .

(١) سمى العصر بذلك لأن فيه امتزج اليونان بالرومان وصار اليونان جزءا من المملكة الرومانية ، وكان استيلاء الرومانيين على مقدونية وجميع بلاد اليونان سنة ١٤٦ ق . م وانتقل بذلك كثير من الفلسفة اليونانية الى الرومان (المعرّب) .

(٢) كانت الاسكندرية تقع الى الغرب من فرع النيل القديم المسمى (فرع كانوب) وتبعد عنه بنحو اثنى عشر ميلا وكان يصل المدينة بذلك الفرع قناة (المعرب) .

انتشرت المدنية والفلسفة اليونانية فى كل العالم وصارت أثينا وبعض بلدان أخرى فى مملكة الاسكندر — وفى الأمبراطورية الرومانية من بعد — مركزا للمدنية والعلوم والمعارف .

بعد سقوط بلاد اليونانية فى أيدى الرومان اعترى البلاد تغير تام لا فى السياسة وحدها بل فى السياسة والعلوم معا — فان الفتح الرومانى الذى أزال كل الفروق السياسية ومحا الخلافات القومية، ووحد الأمم المختلفة باخضاعها للحكم الرومانى ، وأتم بذلك العمل الذى بدأ به الفاتح المقدونى لم يخلُ من تأثير فى الأفكار والعقول ، فالنظام السياسى للحياة اليونانيــة أخذ ينهـار، وأدرك الوهن تلك المبـادئ الأخلاقية التى وضعت لهداية النـاس والتى كان يمدّها بالحياة الشعور بالواجبات الوطنية وحب الجمهورية، وخُلِّىَ الانسان ونفسه يبحث عن مبادئ لنفسه يتبعها فى سلوكه ، واهتزت الديانة اليونانية والأخلاق القومية من أساسهما ، وتقوّض أساس الاعتقاد بالآلهــة الأولى وبالدين ، فقامت الفلسفة تحاول أن تحوز المكان الذى خلا بسقوط دين الأمة ، وابتــدأ الانسان يبحث عما يهديه فى حياته فاعتقد — أو تخيــل — أن الفلسفة هى الهادى الأمين فكانت مهمة الفلسفة كما قال «فندلبند»(١) : "أن تسد مسد الاعتقاد

(١) فندلبند الذى يرد ذكره كثيرا فى هذا الفصل أستاذ ألمانى يدرس الفلسفة فى جامعــة ستراسبورج ألف كتابا ضخما فى تاريخ الفلسفة يقع فى ٧٢٦ صفحة من القطع الكبير وترجم الى اللغة الانجليزية ومنه يقتبس مؤلف هذا الكتاب (المعرّب) .

الديني " وأصبحت القضية الهامة التي يدور حولها البحث الفلسفي سلوك الانسان، وبعبارة أخرى معاملة الانسان للانسان، وبذلك تشكلت الفلسفة بشكل عملي، إذ أصبح مقصدها وضع فن للحياة، وغلب عليها البحث الأخلاقي وصارت بعدُ منافسة للدين ومعارضة له . ويتجلى لك هذا في أميال الرواقيين والأبيقوريين . وشجعت الدولة الرومانية هذه الأفكار، ذلك لأن الرومان كانوا أمة عملية لا تأبه للقضايا النظرية المحضة ولا تعيرها التفاتا، وإنما كانت تتطلب العلوم العملية وابحاث الفلسفة التي تهدى الناس في الحياة — وبهذا يظهر أن الميل إلى الحكمة العملية في هذا لزمن جعل البحث الفلسفي يتجه جهة خاصة .

أتى بعد ذلك حين تملك الناس فيه احساس بالسخط ملأ قلوبهم، وكان ذلك أيام مجد الدولة الرومانية، فان تلك الدولة مع اتساعها وآلتحام أجزائها حتى تكونت منها مملكة واحدة قوية لم تستطع أن تعوض على الناس ما أفقدتهم من استقلال، ولم يكن في قدرتها إرضاؤهم باطنا ولا إسعادهم ظاهرًا، وكانت مدنية العالم الروماني اليوناني إذ ذاك متنافرة غير ملتئمة، فكنت ترى تناقضًا تامًا في الحياة الاجتماعية ، فترف ورخاء بجانب سغب وشقاء ، وكنت ترى ملايين من الناس قد حرموا حتى ما يحفظ حياتهم بين جنوبهم، فاستولى على الناس إحساس بظلم جائر وشعور بوجوب

ثورة على النظام الاجتماعى الذى لا يسوى بين الناس، وظهر عليهم إذ ذاك أيضًا أمل فى حياة مستقبلة (آخرة) يجزى فيها الانسان جزاء عادلا ويعوّض عما لقى من ظلم ، فوجهت تلك الملايين التى حرمت كل شىء فى العالم وجهتها نحو عالم أعلى وتحوّلت الأفكار — بشوق — إلى عالم وراء عالمنا ، إلى العالم العلوى لا العالم السفلى (الى الحياة الأخرى لا الحياة الدنيا) وعجزت الفلسفة عن أن ترضى الناس ، واعترف الانسان بعجزه التام عن معرفة نفسه اذا هو اعتمد على قواه فحسب، ويئس من تحصيله هذه المعرفة اذا لم تعنه قوة علوية ، واعتقد أن السعادة الأبدية لا توجد فى هذا العالم المحسوس بل فى عالم آخر وراء حياتنا الأولى، ولم يعد فى وسع الفلسفة إقناع الرجل المهذب بما تقدّمه من نموذج أخلاقى للحياة، كلا ولا بما تتعهد به من سعادة ، فحوّلت وجهها نحو الدين تستمدّه المعونة .

غير أن الناس فى ذلك العهد أظلمت أفكارهم ، واشتدّ شعورهم بنقصان ما عندهم من العلم وحاجتهم إليه، فطمع الدين أن يكون مُقنِعًا لهم فى شعورهم وعقولهم معًا ، وطمح أن يحوّل الحياة كلها الى عقيدة دينية، لذلك نرى أنه بينما كانت الفلسفة تحاول حل مسائلها وقضاياها بمعونة الدين وهى مع ذلك لا تهتدى الى حل كان الدين يبحث عن الفلسفة ونظمها ليجد له أساسًا علميًا

يبنى عليه عقائده ، ويجعلها أكثر قبولا لقوم راقين ، قال «فندلبند» :
"ان الفلسفة استخدمت نظريات علوم اليونان لتهذب الآراء الدينية وترتبها ، ولتقدم الى الشعور الدينى الّلجوج فكرة فى العالم تقنعه ، فأوجدت نظمًا دينية من قبيل ما وراء المادة تتفق مع الأديان المتضادة اتفاقًا يختلف قلة وكثرة" (ص ١٥٨) .

لهذا كان امتزاج الدين بالفلسفة — الذى هو من خصائص التطور العقلى قبيل النصرانية وبعدها — ملموحًا فى الرأى العام وفى المدنية أيام الحكم الرومانى ، وكان من جراء هذا الامتزاج انحلال أخلاقى يشعر بالحاجة الى الإصلاح .

كان الانقلاب فى النظم السياسية والاجتماعية ، واختلاط الأمم المختلفه الأصل ، والتغيرات التى شملت العوائد والدين ، سببًا فى ظهور روح جديد تغلب على الفلسفة ووجهتها وجهة جديدة . ذلك أن أفكار اليونان ومدنيتهم لما عدت قوميتهم وتخطت حدود بلادهم أصبحت تميل الى عد كل العالم — لا اليونان وحدها — وطنًا لها ، وصارت الفلسفة اليونانية — من جهة — تحاول أن ترضى الانسان وتقنعه ، لا من حيث أنه عضو فى مجتمع أو أحد أفراد حكومة جمهورية ، بل من حيث أنه فرد ما ، يونانيا كان أو شرقيًا أو رومانيًا ، وثنيًا أو يهوديًا — ومن جهة أخرى —

تحاول أن تملأ المكان الذى أخلاه دين الأمة بعد أن فقد برقى الناس ما كان له من قوة .

كانت نتيجة تلك الحالة العامة أن صارت الحكمة الرومانية اليونانية تنظر الى الانسان فى سلوكه ومعاملاته كأنه فرد مستقل عن غيره[(١)] وكانت الفلسفة التى تبحث فى هذا السلوك مطبوعة بطابع أخلاقى أو دينى، ولم يكن للمسائل السياسية العامة شأن يذكر، إنما كان الشأن للقضايا التى تتعلق بالانسان نفسه ، ويتجلى هذا الميل فى مذهب الرواقيين والأبيقوريين والشُكَّاك ومحَدَثى الأفلاطونيين وفى الفلسفة اليونانية اليهودية وفى الغنوسطية[(٢)] .

(١) لتوضيح ذلك نقول أن الغالب على البحث الأخلاقى فى لقرون النصرانية الأولى — أيام اضطهادها وتعذيب أتباعها — كان النظر الى الانسان كأنه مستقل عن غيره وكانت الأخلاق تطلب من الانسان أن يعمل لتخليص نفسه وأن يفر من أخيه وأمه وأبيه وكل قريب له ليسير وراء غايته ؛ وغايته هى التخلق بأخلاق الله وحببت الى الناس العزلة وأن يعيشوا فى العالم كأنهم ليسوا من أهله فلما أصبحت لنصرانية ذات سلطان بعد القرون الأولى من حياتها غلب عليها النظر الى الانسان كانه عضو فى مجتمع وطلبت منه أن يحسن علاقته مع الله ومع الناس (المعرب) .

(٢) يعنى بالرواقيين والابيقوريين هنا رواقى الرومانيين وأبيقوريهم فقد انتقل هذان المذهبان اليهم وطبعوهما بطابع خاص والأفلاطونية الحديثة مذهب سنشرحه عند الكلام على فلسفة العرب والغنوسطية (Gnosticism) ويصح أن يسموا بالأدرية (ضدّ اللا أدرية) ضرب من الفلسفة ظهر فى القرون الأولى للميلاد كان مذهبهم مزج الفلسفة الشرقية والفلسفة اليونانية بالنصرانية وإخراج مزيج من ذلك وهم فى هذا كمحدثى الافلاطونيين كما ستعلم (المعرب) .

وكانت الاسكندرية هى المركز الجغرافى لمزج الدين بالفلسفة ، فبعد أن كانت مدينة المتحف والمكتبة ، والمدينـة المعروف عن أهلها النقد وسـعة الاطلاع ، أصبحت مجمع المذاهب الفلسـفية والطوائف الدينية ، فسهل الاتصال والامتزاج ، والتقى على ضفاف النيل رجال مختلفة آراؤهم ، متباينة مذاهبهم ، تبادلوا فيها الآراء كما كانت تتبادل فيها السلع ، فاتسعت دائرة الفكر وقورن بين الآراء المختلفة ، وكان من نتيجة ذلك ظهور روح جديد أسس على مبدأين متناقضين ممتزجين : أحدهما الشك والنقد ، والثانى سرعة التصديق بالأشياء على علاتهـا . تقابلت فى الاسكندرية آراء الشرقيين والغربيين (اليونان) فامتزجت روح اليونان بروح المشارقة ، فأنتجتا عقائد ونظماً دينية متأثرة بتأمل الأولين وإلهام الآخرين . بمـا لليونان من علم وما للمشارقة من أساطير . جاءت الروح اليونانية بمـا لها من ذكاء ودقـة وقدرة على الشرح المبين فأصابتهـا شرارة من الشرق أشعلتها وأحيتها — كذلك أخرجت الروح الشرقيـة — التى من خصائصها الطُّموح الى ما وراء عالم الشهادة — نظاما ملتئما ونظريات مرتبة لم تكن لتخرجها لولا مساعدة العلم اليونانى لهـا ، فانه رتب مأثور الشرقيين وحل من عقدة لسانهم فاستخرجوا العقائد الدينية والنظم الفلسفية التى بلغت الذروة فى مذاهب الغنوسطية والأفلاطونية الحديثة ويهودية « فِيلُون » ومذهب الاشراك الذى وضـعه يُولْيان الصابى — ان الشرقى بما له من ميل الى الغيب وخوارق العادات

وما فى طبيعته من تصوف وتدين ، واليونانى بما له من فحص دقيق و بحث عميق ، وان شئت فقل أن ما للأول من شعور وما للثانى من تحليل منطقى امتزجا ونتج منهما فكر خاص انتشر فى الاسكندرية فى القرون الأولى للميلاد ، وقد صبغ ذلك الفكر بصبغتين مختلفتين : صبغة الكاليين والصوفيين وصبغة أهل البحث العلمى ، ولذا امتاز هذا العصر بميل الفلسفة الى الدين وميل الدين الى الفلسفة ، قال «بلدوين» فى كتابه «معجم الفلسفة» عند كلامه على مادتى «فن» و «مدرسة الاسكندرية» : "ان الشرق والغرب اختلطا فى الاسكندرية وامتزجت آراء رومة واليونان والشام فى المدنية والعلوم والدين بآراء الشرق الأقصى فى ذلك ، فنشأت قضية جديدة عمل على إيجادها بحث الغرب و إلهام الشرق ، واتصل الدين بالفلسفة اتصالا وثيقًا كان من نتائجه ظهور عقائد لا هى من الفلسفة المحضة ولا من الدين الخالص ، بل أخذت بطرف من كل . وجاء ذلك من عاملين : (أحدهما) ميل اليهود الى التوفيق بين معتقداتهم الدينية والعلم الغربى الذى كان متأثرًا بالعلم اليونانى . (وثانيهما) أن المفكرين الذين استمدوا آراءهم من الفلسفة اليونانية رأوا أن يوفقوا بين معتقداتهم الفلسفية والقضايا الدينية المحضة التى جاء بها المشارقة . ومن أى الجهتين نظرنا رأينا أن النتيجة كانت فلسفة دينية لا هى فلسفة محضة ولا هى دين خالص" .

٧ — العصر الثالث من عصور الفلسفة عصر القرون الوسطى وبعبارة أدق الفلسفة النصرانية .

سقطت الدولة الرومانية فى أيدى أمم الشمال المتبربرة فقوّضت الحضارةَ الرومانية اليونانيــة القديمة ، وطغى سيل القوط — والبرجنديين والوندال والسويفيين والألنيين والكلتيين والسكسونيين ولاسيما قبائل المغول والهون — على الدولة الرومانية العتيقة الواسعة ، وكانت قد بلغت من ضعفها الناتج من انحلالها الأخلاقى وانحطاطها الاجتماعى حدًّا أصبحت لا تستطيع معه مقاومة هذه الأمم القوية المتبــدية .

وجاءت هــذه الأمم المتبربرة بخصائص قومية وأفكار ونظم كانت شريفة راقية — وان صدرت عن قوم بدو — استطاعت فيما بعد أن تنافس المدنية الراقيــة ، وتسير معها جنبا الى جنب ، غير أنهم ما برحوا جفاة غلاظًا سُذَّجًا ، ومضت قرون طويلة قبل أن يأخذوا عن اليونان والرومان مدنيتهــم ويمزجوها بأفكارهم ويكوّنوا منها المدنية الحديثة . لم يكن لهم لأوّل عهدهم علم بفنون اليونان ونظمها الفلسفية المحكمة فكان عصرهم الأوّل عصر جهــل وخشونة ، أعقب عصر المدنية والحضارة والآداب ونضارة الفنون والعلوم التى كانت من مميزات العقول أيام الدولة اليونانية الرومانية ، وقد كادت آثار العقل الاغريقى تضيع لولا أفراد قليلون من العلماء

المسيحيين حفظوا بقايا المدنية القديمة — مع محاربة الكنيسة لهم — حتى وصل هؤلاء المتبربرون الى درجة من الرقى العقلى أمكنهم معها أن ينتفعوا بتلك البقايا شاكرين لمن حفظها لهم :

كانت الكنيسة على العموم تضطهد آداب اليونان والرومان وعلومها وتحارب من اشتغل بهما، وتعارض نشر الحياة العقلية والمدنية القديمتين ، وتحدّد دائرة يجول فيها الفكر، ذلك لأنها اعتقدت أن الحقيقة قد وصلت اليها من الوحى المعصوم فلامعنى بعد أن تسمح للناس بالبحث عنها ، لذلك كانت الكنيسة عدوة الفلسفة والعلم، فخمدت الحياة العقلية، ولم تسترد نشاطها إلا بعناء لما أن انبعثت أشعة « النهضة » ممتزجة بأشعة من الشرق — فأضاءت سماء القرون الوسطى المظلمة .

واذا كان قد بقى شىء من الاحترام للعلم نشأ عنه المحافظة على شىء من الفلسفة القديمة فانما كان ذلك مقصورا على الجزء من المدنية القديمة الذى يندمج فى تعاليم النصرانية، أما ما عدا هذا وخصوصا ما يعارض النصرانية فقد كان ينبذ نبذا، وبذلك ظلت الفلسفة الغربية خادمة للدين جملة قرون، وكان غرضها الرئيسى تأييد العقائد الدينية وتحديدها وتنظيمها، وإظهار أن تلك العقائد التى نزلت من السماء تتفق أيضا مع العقل .

ويمكننا تقسيم سبيل النشوء الذى سلكته الفلسفة المسيحية الى عصرين كبيرين : (أولهما) ابتدأ من العصور المسيحية الأولى، وفيه كان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة قبل أن يكونوا رجال دين، فرأوا من الضرورى أن يؤيدوا أنفسهم وعقائدهم أمام الوثنيين، وقد ختم هـذا العصر عمليا فى الحقيقـة بالأب أوغُسْطِينُوس (٣٥٤ — ٤٣٠ م) غير أن بعض الكتاب الكنائسيين — الذين هم فى المرتبة الثانية بعد الأولين — ساروا على هذا النمط الى القرن التاسع ويلقب هـذا العصر « بعصر الآباء » والعصر الثانى يمتد من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر ويلقب «بالعصر المدرسى» ، لأن التعليم كان يقوم به جمعيـة الرهبان فى مدارس الكنائس وقد أنشأ شارلمان كثيرا من هذه المدارس فى جميع أنحاء فرنسا وكان مدرسوها من رجال الكنيسـة وكانوا يرمون الى إلباس مآرب الكنيسـة لباسا فلسفيا، ويطلق هـذا الاسم على ذلك العصر من القرون الوسطى — الذى كانت الفلسفة فيه تدرس تحت سلطان الدين وكان القصد من دراستها تطبيق التعاليم المسيحية على العقل، وقد استمر هذا العصر من القرن التاسع الى ظهور النهضة فى القرن الخامس عشر .

قال « هِجِل » فى كتابه المسمى «محاضرات فى تاريخ الفلسفة» ”إن الفلسفة المدرسية (فى العصر المدرسى) لم تكن مذهبا محدودا

كمذهب الأفلاطونيين أو الشكاك ، بل كانت مجرد اسم مبهم يطلق على كل مباحث المسيحيين الفلسفية فى أكثر من خمسمائة عام" " فليست الفلسفة فى العصر المدرسى إلا لاهوتا ، ولا اللاهوت إلا فلسفة، والفيلسوف المدرسى هو من يبحث فى اللاهوت بحثا علميا منظما" ففلسفة العصر المدرسى هى فلسفة أوروبا التى انتشرت بين الكنائس فى شكل لاهوتى، وكانت الفلسفة والدين فيه شيئا واحدا، وانفصال أحدهما عن الآخر إنما كان عند انتقال الناس الى العصور الحديثة لما رأوا أن بعض ما قد يراه العقل حقا قد يراه الدين باطلا، وكانوا من قبل يرون أن ليس هناك إلا حق واحد وهو ما أقره الدين . قال « هجل » فى ذلك الكتاب " إن اللاهوت فى العصر المدرسى لم يكن مقصورا على ما يختص بالله من العقائد — كما هو الشأن عندنا — بل كان يشمل ادق الأفكار فى فلسفة أرسطو والأفلاطونية الحديثة" كانت الفلسفة فى العصر المدرسى توفق بين العقل والدين، بين الطبيعة وقدرة الله، ومن قبلُ كانت هذه الأشياء متعادية، ومؤسس هذه الفلسفة «سْكُوتَس إرِيجِينَا» وأكبر ممثليها القديس أَنْسِلْمُسْ وأَبِيلَرْدْ والقديس تُومَاس ودَنْس سْكُوتَس . وتنقسم الفلسفة فى العصر المدرسى الى قسمين: أفلاطونيــة وأرسططاليسية أو مَشَّائية، فكانت أوّلا متأثرة بآراء أفلاطون، ثم أخذت تخضع لنفوذ أرسطو من القرن الثالث عشر،

وقد نشأت آراء آباء الكنيسة (العصر الأول) من آراء اليونان والرومان، أما فلسفة العصر المدرسي فنبتت فى أرض الجرمان والعالم اللاتيني الحديث، وكانت ثمرةَ حضارة جديدة .

٨ — العصر الرابع من عصور الفلسفة عصر الفلسفة الحديثة وهو يبتدئ «بالنهضة» ويستمر الى يومنا هذا .

يرجع قيام الفلسفة الحديثة الى حركتين تاريخيتين عظيمتين: (إحداهما) النهضة أو إحياء العلوم وآثارِ اليونان والرومان فى الفنون والعلوم . (والثانية) الاصلاح الديني، ففى نحو منتصف القرن الخامس عشر ابتدأت المدنية اليونانية تؤثر فى عقول الغربيين ، وانبعثت من إيطاليا لغة اليونانيين القدماء وشعرهم وفلسفتهم، وسارت سير الفاتح الفائز الى أن شمل فتحها أوروبا بأجمعها ، نعم إن الأسباب التى أنتجت هذه الحركات العظيمة كانت تعمل من قبل هذا التاريخ ولكن لم يتم تكوين النهضة إلا فى النصف الأخير من القرن الخامس عشر، عند ما سقطت المملكة الشرقية وعاصمتها القسطنطينية فى يد الأتراك ، فهجر علماء اليونان بلادهم والتجئوا الى إيطاليا، ابتدأت تلك الأسباب تعمل على إيجاد النهضة من أيام الحروب الصليبية — ان لم يكن قبل ذلك — ولم تكن النهضة طفرة، ولا كانت روح العلم القديم ميتة أو فى سبات عميق فانتبهت دفعة واحدة، بجداول المدنية والعلم الثلاثة وهى اليونانية

والسامية والرومانية كانت قد تقابلت فى الاسكندرية، وامتزجت وتكوّن منها مجرى واحد جديد ، ثم عاد ذلك المجرى فتفرّع الى ثلاثة جداول سارت فى سبل متفرقة لتمنح العالم خصبا ، وهى النصرانية اليونانية والنصرانية الرومانية والعربية ، ويزاد عليها ما يعدّ كرافد لها وهو اليهودية ، واستمرت هذه الجداول تفيض بهدو مدّة قرون من غير أن تتقابل، وكانت مراكزها العقلية على الترتيب — القسطنطينية وباريس وبغداد ومدارس الأندلس، وقد تقابلت هذه الجداول فى بلاط فِرْدِرِيك الثانى[1] وظهر من اجتماعها مدنية وثنية تكوّنت من امتزاج هذه المدنيات الثلاث بعضها ببعض، وابتدأت روح الثورة والاستقلال تظهر من ذلك الحين ولكنها كانت قبل أوانها ، فالكنيسة كان لها السلطان الأكبر، وكانت العقول لا تزال تخضع للدين خضوعا تاما، فكانت النتيجة أن تحوّلت هذه الحركة الى التيار الدينى ثانية، حتى أتت سنة١٤٥٣م فكملت النهضة ووصلت بعد السير البطىء المستمر الى الذروة — وقدّر للجداول الثلاثة التى تفرّعت فى أرض مصر الخصبة أن تتقابل ثانية فى رياض الأسرة المِيدِيسِيّة[2] فى فلورنسا .

(١) فردريك الثانى ملك جرمانيا ولد سنة ١١٩٤ ومات سنة ١٢٥٠ حارب فى الحروب الصليبية وتوج أمبراطورا على إيطاليا فى رومة سنة ١٢٢٠ وأنشأ جامعة نابلى وشجع العلوم والآداب وتوج ملكا على بيت المقدس فى الحروب الصليبية سنة ١٢٢٩

(٢) الأسرة الميديسية أسرة من فلورنسا (بايطاليا) تقلدت زمام الأحكام فى فلورنسا فى القرن الخامس عشر لما حازته من الغنى بواسطة التجارة (المعرب) .

ولكن مضى عليها عدّة قرون من يوم أن فارقت مدينة النيل (الاسكندرية) وهى تسير فى ثلاث شعب متوازية الى أن صبت مياهها الراحرة كلها فى مدينة نهر الأرنو (فلورنسا) مركز النهضة، فهناك تقابلت الروح الغربية والبيزنطية والمدنيات اللاتينية النصرانية، وسال بها الوادى ففاض على أوربا بأجمعها .

قال ج . ب . أدمس فى كتابه «المدنية فى القرون الوسطى» : "ان الأحوال السيئة التى سادت فى أوربا فى القرون الوسطى الأولى من جراء غارات التيوتونيين فأخمدت نور العلم الذى كان عند الأقدمين صارت الى الزوال ... وجرت حوادث عظيمة وظهرت أفكار جديدة فى التجارة والاستكشاف وفى السياسة انتشرت بين الناس بالعدوى فكانت تزيد فى نمو العقل البشرى يوما بعد يوم" وابتدأ الانسان يتحقق من أن وراءه تاريخا هاما يستطيع أن يتعلم منه مسائل كثيرة، وذلك أن العقل لما أدركه الاعياء من التقاليد الجافة التى كانت فى القرون الوسطى، وأحس بثقل أغلال الكنيسة التى كانت تمنعه من أن يفكر لنفسه، ولّى وجهه شطر الأفكار والعلوم اليونانية يدرسها، وفعل ما فعله المشارقة فى الاسكندرية لما أن شغفوا بالآداب اليونانية، وابتهج المتعلم فى القرون الوسطى برفع النقاب عن عالم الفكر اليونانى لما رأى فيه من غنى وجمال، فجاء عصر جديد وثنى أكثر منه نصرانيا،

يناهض المدنية النصرانية فى القرون الوسطى، حييت فيه المذاهب الفلسفية القديمة وعادت الفلسفة الأفلاطونية فبزغت فى سماء ايطاليا بعد أن مر على غروبها فى الاسكندرية مدة قرون وهى محتجبة فى خبايا الاديرة، وبعثت اكاديمية أثينا(١) فى رياض فلورنسا (انظر "دريبر" فى كتابه الرقى العقلى) وأخذ الفلاسفة ينظرون بشوق الى الأزمان الوثنية الجليلة .

٩ — سار الاصلاح الدينى جنبا لجنب مع الحمية لمدنية اليونان والرومان فى الفنون والعلوم، وجاء المجرى الجديد الذى سال من بيزنطية (القسطنطينية) فمر بايطاليا ثم غمر أوروبا كلها فحول مجرى الأفكار الغربية، ولم تقتصر نهضة الانسان على إحيائه علوم الأولين واستكشاف ما كانوا يعرفونه بل تهيجت فيه عواطف وقوى طال زمن إهمالها، واستيقظ من غفلته فشعر شعورا جديدا بالحياة وبالعالم الذى فيه يعيش وبما يعرض له من المسائل التى تتطلب حلا، وأحس بقدرة عقله على اكتناه أسرار الطبيعة وحل ما يعرض عليه من هذه المسائل (أدمس ص ٣٦٥) .

قال «بُرْكْ هَارْتْ» فى كتابه الممتع «مدنية ايطاليا أيام النهضة ص ١٣١» : "فى القرون الوسطى كان النظر الى باطن الانسان

(١) الأكاديمية (Academy) بستان قرب أثينا كان فى الأصل لبطل شهير يسمى «أكاديموس» وكان يجتمع فيه أفلاطون ومن أتى بعده يتدارسون الفلسفة (المعرّب) .

وما حوله من الأشياء الخارجية بين النوم واليقظة، قد سدل عليه ستار نسجه الدين والوهم والتعصب الأعمى منع الانسان أن يرى العالم على ما هو عليه . وما كان يحس الانسان بنفسه إلا كفرد من جيل أو شعب أو حزب أو أسرة أو « طائفة » . وما كان يحس لنفسه بشيء من الشخصية، ورفع ذلك الستار أيام النهضة فرأى من الممكن أن يفكر فيما حوله من الأشياء سواء كان حكومة أو أى شيء فى العالم، كما رأى من الممكن أن يفكر فى نفسه، واعتقد أنه فرد ذو روح حساسة — وامتاز ذلك العصر بشعور الانسان فيه بشخصيته المطلقة، وبمعارضته للسلطة وذويها، وذهابه شوطا بعيدا فى اعتبار العالم كله وطنا له . وهذه دلائل أعظم رقى يصل اليه الناس فى تقدمهم العقلى ، وقد أعلت النهضة شأن الطبيعة الانسانية والحياة الدنيوية مخالفة فى ذلك طريقة التفكير فى القرون الوسطى، ولذلك يسمى العلماء الذين خصصوا أنفسهم لدراسة آداب اليونان والرومان والعلوم عند القدماء «الانسانيين» كما تسمى عقائدهم ومُثُلهم العليا « الانسانية » وكان من خير ما أحدثه هؤلاء الانسانيون « نمو الفردية » أعنى الرأى القائل بأن الانسان ينبغى أن يفكر بنفسه لنفسه — وهو رأى كان قد أهمل فى عصر عبودية العقل — وهذا الرأى هو ما كان يجدّ وراءه علماء ايطاليا منذ زمان .

وأول ما بدت بشائر تقرير ما للانسان من شخصية كان زمن النهضة، وتم ذلك على يد «العلماء المتبحرين» الذين جاءوا بعد فردّدوا تعاليم النهضة وايدوها، أمثال ديدرو، وروسو، وفنكلمان، وهامان، وهردر .

قال فندلبند : "أن الفلسفة فى أيام النهضة لم تعد من عمل الجماعات (كما كانت في القرون الوسطى) بل أصبحت من عمل أفراد أحرار مستقلين" وقد كان من أهم أغراض النهضة تقرير الحرية الفردية ، وبعبارة أخرى إنماء الشخصية، وجاء الاصلاح الدينى فساعدها على ذلك .

فهم الناس على عهد الاصلاح الدينى أن لهم حق الحكم الشخصى على الأشياء، وتحررت أفكارهم من قيود قيدها بها رجال الدين، وقد كان هذا كامنا في نفوس الناس من قبل، ولأنْ يُعد هذا سببا فى حركة الاصلاح أقرب من أن يعدّ نتيجة . (انظر فندت ص ١٧٦) فمبادئ الاصلاح الدينى كانت الثورة على سلطة الكنيسة، واعطاء الانسان حق الحكم الشخصى ، وكان من آثار هذا الاصلاح تحرير العقول من العبودية التى وضع نيرها رجال اللاهوت، وفصل الفلسفة عن الدين وجعلها علما دنيويا مستقلا (١) —

(١) ليلاحظ القارئ أن المؤلف انما يتكلم على ما كان للكنيسة فى أوربا من السلطان وهو يختلف اختلافا كبيرا عن الحالة فى الشرق فشتان بين سلطة رجال الدين فى لشرق وسلطانهم العظيم فى القرون الوسطى فى أوربا (المعرب) .

وهاتان الحركتان أعني النهضة العلمية والاصلاح الديني بتعاونهما أنتجا عاملا ثالثا كان له أثر في تلوين لأفكار الحديثة بلون جديد، وتحويل فلسفة القرون الوسطى الى الفلسفة الحديثة، وذلك العامل هو «العلوم الطبيعية» فالعلوم الطبيعية هي التي هدت الفلسفة الى الاستقلال في العمل، ودليلنا على ذلك أن الاستكشافات العظيمة الحديثة التي وسعت نطاق الجغرافيا — من رحل كُولَمْبَسْ وفَاسْكُودُه جَامَا ومَاجْلَان — وما أبانه كُوبَرْنِيكُسْ من نظام العالم، والبحث العلمي الذي بحثه ستيفنس وتيكوده براهي وجليلو وكبلر وجلبرت لما كانت تصحب رقي الفلسفة الحديثة كان لا بدّ من أن يكون للعلوم الطبيعية — التي تختلف اختلافا كبيرا عما كانت عليه في العصور القديمة — أثر كبير في هداية الفكر في العصور الحديثة .

قال فندلبند : (كلما انفصلت الفلسفة عن الدين وكانت علما كونيا مستقلا كانت مهمتها التي يجب أن تؤديها هي أن تبحث في علوم الطبيعة، والى هذه الغاية كانت تتجه كل أبحاث الفلسفة زمن النهضة، حتى أن شعارها كان «لَتَكُونَنَّ الفلسفة علما طبيعيا») .

١٠ — من هذا نرى أن النهضة والاصلاح الديني أطلعا فجر الفسلفة الحديثة وهي — مع مخالفتها لفلسفة القرون الوسطى مخالفة كبرى — تشبه تاريخ تطوّر العقل عند القدماء مشابهة كبرى، وتسير في نفس الطريق الذي سلكه، فان الفلسفة الحديثة من أيام

النهضة فما بعد نتبع سنة النشوء والارتقاء، وتنتقل من طور الايمان والاعتقاد الى طور التعقل، وذلك كان الشأن عند القدماء .

أوّل ما أخذ الفكر يفيق من سباته الطويل بدأ يعرّض الدين والنظم التي بنيت عليه للبحث والنقد الهادم . ومن مميزات عصور الانتقال حدوث النزاع بين الآراء المتنوّعة والنظريات المختلفة ، بين القديم والجديد — ويتلو ذلك عادة عدم الرضاء عن الماضى لفساده والرغبة فى نظام جديد خير مما سبقه، فبينما ترى القديم آخذا فى التداعى اذا بالجديد لا يزال فى طور التكوّن ولم يستقر بعد على شكل . واذ ذاك ترى العقل يتراوح بين تعطش لمُثُل جديدة ، وآراء جديدة، ووضع نظريات للعالم جديدة، وبين البحث فى القديم يتخذ منه دعامة للجديد، وترى العقل — اذا قوى شعوره بقوّته ونزع الى الثورة — يتحرر من قيود الدين، ويبعث من نوم عميق سببه الدين، لأنه ظل يستدرج الانسان بما يهمسه فى أذنه همسا خفيفا حتى نام واستغرق، ويبتدئ نمطا فى الحياة جديدا، وهو مع كل هذا لا يزال يتعلق بالماضى ويتشبث به، فتتمشى الآراء القديمة مع النظام الجديد، وتستخدم الأشكال القديمة فى البناء الجديد .

وهذا بعينه ما كان عند ما انبثق فجر الفلسفة الحديثة . فقد كانت وجهة الفكر فى القرون الوسطى دينية محضة ، وكان

الدين هو الذى يحدّد أغراض العلم ويسن نظم البحث ، ولم يكن عنوان الرقى العقلى إلا صلاة طويلة مستمرة ، وكان البحث الفلسفى انما يدور حول الآخرة وعالم الغيب، حتى اذا كانت الأسباب التى ذكرنا من قبل دعا داعى الثورة والانقلاب فاشتد الهياج على النظام الموجود ، والمبادئ القائمة ، وزاد سخط الناس على ما لديهم من عقائد عتيقة « فأعلنت الحرب على كل نوع من أنواع السلطات وطولب بحرية الفكر»[1] وكان موقف الفلسفة الحديثة فى عالم الفكر كموقف البروتستنتية فى عالم الدين ، « كلٌّ طَالَب بالاصلاح وكل دعا الى التغيير » "وأصبح الحق فى نظر الناس ليس ما اعتبر حقا منذ قرون، ولا ما قال عليه فلان أنه حق سواء كان القائل أرسطو أو توماس أكويناس أو غيرهما، انما الحق ما برهن لى عليه واقتنعت بكونه حقا"[1] ويتميز هذا العصر بحرية الفكر واستقلاله وبكسر القيود التى غله بها رجال الدين[2] فتداعت عقائد القرون الوسطى الجافة، ونبذت آراؤها ، وأهمل

---

(١) فلكنبرج . (٢) لم يرد المؤلف من كلامه الماضى ولا مما قاله هنا طرح الأديان والخلاص من كل دين انما يريد أن يكون الدين دينا مصحوبا بعقل ، دينا لا يمنع الانسان من لنظر ولفكر ، دين اجتهاد لا دين تقليد فان كان كذلك فلست أعرف أى ضرب من ضروب الفلسفة يستنكره ولا يرضاه — بالدين يحيي القلب وبالفلسفة يحيي العقل ولا بد للانسان من قلب وعقل فاذا اجتمع للانسان دين راق يحيي قلبه ولا يقيد عقله وفلسفة متواضعة لا تعدو طورها ولا تقصر ايمانها على ما ترى بعينها وتترك للقلب مجاله فذلك هو لخير كل الخير (المعرب) .

الجدال فى عالم الغيب ، ولكن لم تكن الآراء الجديدة قد استقرت بعد، بل كانت فى طور التكوّن — وقد كانت الفلسفة فى طور تكوّنها تنظر الى الماضى، ولست أعنى ذلك الماضى القريب الذى كانت هى على وشك أن تفارقه، وانما أعنى الماضى البعيد وعهده القديم — عهد الاغريق والرومان — واعتاضت بما وجدته فى ذلك العهد عن عقائد القرون الوسطى " وبذلك جرت الفلسفة فى مجرى النهضة ومذهب الانسانية وسار ذلك المجرى من ايطاليا فعم العالم المتمدن كله"[1] وقد ذكرنا قبل أن الفلسفة الحديثة من عهد النهضة كانت أميل الى الاتجاه نحو الطبيعة ، وكان الفكر الحديث — بدافع الروح اليونانية — منصرفا الى الطبيعة وعلومها ينظر فيها نظرا غير متحيز، كما كانت الحال عند الاغريق، و بعثت الأفكار اليونانية على الرغبة فى تعرّف العالم من جديد، وحقّ ما قيل " ان الذى يقصد الى الفلسفة الطبيعية أو الفنون والآداب كذلك، لا بد أن يعرّج على اليونان، هذا ولم تكن الفلسفة الحديثة طبيعية فحسب، بل كانت فردية أيضا، فقد كان من خواصها لفت عقل الفرد وتحريره من رِقّ الايمان، وكان من أغراض الحركة الحديثة تقرير حق الأفراد فى الحكم على الأشياء، والترخيص لكل فرد أن يبحث أى شىء و ينتقده، غير مقيد فى ذلك بأية سلطة خارجية ،

(١) فلكنبرج .

وعلى الجملة فقد تقرر أن يكون لعقل الفرد القول الفصل فى الحكم على الأشياء، وبذلك فشا الاعتقاد بأن العقل قادر أن يحل كل ألغاز العالم ويصل الى أبعد أسرارها ، وعلى هذا الأساس بنى دِيكَارْت وسْبِينُوزا ولَيْبْنِتْز نظمهم الكبرى « فيما بعد الطبيعة » ويسمى مذهبهم مذهب « العقليين » .

١١ — وهذا الميل الى إخضاع كل شيء لبحث العقل أدّى الى وضع العقل نفسه تحت البحث ، فصار كل من العالم المادّى والعقلى خاضعا للنظر والامتحان ، وكان الشأن فى العصور الحديثة كالشأن عند اليونان ، ففى كليهما جاء أوّلا عصر النظر فى الكون ، ثم شفعه عصر النظر فى الانسان نفسه، فتوجه النظر فى البحث فى أصل معرفة الأشياء ، وتحوّل مجرى الفكر الى الأبحاث النفسية (السيكولوجية) وأخذ الانسان يسأل : ما أصل المعرفة والادراك وما منبعهما ، ألعقل أم التجربة؟ بحث فى هذه المسائل وأمثالها « جُونْ لُوكْ » الذى نهج منهج « ديكارت » واختار كسلفه « بيكُون » ان أصل المعرفة التجربة لا العقل . وانتشرت نظرية « التجربيين » القائلة بأن المعرفة مستقاة من التجربة فى انجلترا كما انتشرت نظرية « العقليين » القائلة بأن أساس المعرفة العقل فيما عدا انجلترا من ممالك أوروبا ، وقد قارن « فلكنبرج » بين خصائص العقل فى الممالك الثلاث

الكبرى التى كان لها الحظ فى الفلسفة من عهد «ديكارت» الى عهد «كانت» فقال "ان الفرنسى تغلب عليه حدة الذهن ، والانجليزى البساطة والوضوح ، والألمانى التعمق والتفكير ، ففرنسا منبت الرياضيين ، وانجلترا منبت العمليين ، وألمانيا منبت المفكرين النظريين . فالأولى موطن الشكاك المرتابين ، كما أنها موطن المتحمسين ، والثانية موطن العمليين الواقعيين ، والثالثة معهد المثاليين" .

وقد جاء بعد «لوك» «دَاڤِيْدْهْيُوم» — وهو من أكبر من يتجلى فيه مظهر الفكر الانجليزى من حيث العمق والثبات فرقى ما قاله «لوك» فى التجربة واوصله الى فلسفة الشك (١) والفلسفة الوضعية (٢) وهذا النحو من التطور يشبه التطور العقلى عند اليونان . ونظرية الشك هذه التى أسسها «هيوم» أثارت فى اسكتلندا الميل الى استعمال العقل فى البحث "كما أنها ساعدت عالما ألمانيا يشبه «هيوم» بل أعظم منه نفسا على الخلاص من قيود الاستسلام ، ومن قبول المسائل من غير بحث وشجعته على وضع نظامه الانتقادى" وذلك العالم هو «عمانويل كَانْتْ» .

---

(١) فلسفة الشك ضرب من الفلسفة يعرض كل حقيقة للشك و يشك فى كل المبادئ فلسفية كانت أو دينية .

(٢) الفلسفة الوضعية (posivitism) مذهب من الفلسفة يقول « ان العلم الذى يمكن تحصيله هو العلم بالظواهر لا غير » (المعرب) .

من ذلك نرى أن الفلسفة الحديثة اتبعت فى تطورها الطريقة التى جرى عليها الفكر عند اليونان ، فالفلسفة اليونانية كانت أيام طفولتها فلسفة طبيعية ، تبحث فى عالم الطبيعة ، ثم تحوّل البحث الى الانسان وقواه الباطنة ، فبعد أن كانت الفلسفة فلسفة نظر فى الكون صارت فلسفة انسان (فلسفة أنثروبولوجية) ثم تلت الحركة التى قام بها السوفسطائيون الى الشك فى الحقائق . وهذا بعينه هو الطريق الذى سلكه الفكر الحديث فقد كان مجرى الفكر متجها نحو الطبيعيات عند ما فارق منبع النهضة ؛ ثم اتجه نحو الانسان عند اجتيازه هولندا وألمانيا وفرنسا ، ثم ارتقى فاتجه الى البحث فى « نظرية المعرفة » عند وصوله الى انجلترا ، ثم وصل فى النهاية الى الشك والارتياب . وكما مهد السوفسطائيون بشكهم الطريق للاصلاح الذى قام به سقراط ولنظام أفلاطون «المثالى» فكذلك الشك الذى أسسه « هيوم » مهّد السبيل للاصلاح الذى قام به « كانت » والذى كان منه «مذهب المثال الألمانى»(١) وحقا ان «هيوم» قوّض ما قاله «لوك» من أساسه .

---

(١) ترجمنا كلمة (Idealism) فى علم الجمال بمذهب الكماليين وفيما وراء الطبيعة — كما هنا — بالمثاليين مراعاة للمعنى ومذهب المثال الألمانى هذا يرى أن مثال الأشياء فى الذهن وبعبارة أخرى صورة الشىء الذهنية تخالف الأشياء نفسها فى الواقع ولهذا المذهب أشكال مختلفة فمذهب يرى أن ليس للأشياء إلا مثالها الذهنى وليس لها وجود خارجى ومذهب يرى الوجودين الذهنى والخارجى ولكن يقول أنهما ليسا متطابقين (المعرب) .

وانبعثت من أقوال « هيوم » شرارة كادت تشعل ما حولها لو أنه قدّر لها أن تقع على مادة سريعة الالتهاب ولو أنه رُوّح على ما أصابت . وكان لأقواله أثر فى « كانت » فانها جعلته ينتبه من سَنَته و ينبذ طريقة التسليم من غير بحث [١] وقد سار مذهب العقليين مع مذهب التجربيين جنبا الى جنب وان كانت كل فرقة منقسمة على نفسها وهى فى حرب عوان مع الأخرى حتى جاء « كانت » فحاول أن يوفق بين المذهبين و يزيل الخلاف بينهما بتحديد دائرة لكل من العقل والتجربة، وتقويم كل باعتبار ما يوصل اليه من الحقائق . وقد بحث كل من العقليين والتجربيين فى أصل المعرفة ولكنهما كليهما وثقا بالعقل البشرى، واعتقدا بقدرته على معرفة الأشياء، فلم يتعرض أحد منهما لموضوع « إمكان معرفة الأشياء» [٢] حتى أتى « كانت» فوجه بحثه نحو المعرفة نفسها. وأثار البحث فى إمكان المعرفة وأخضع العقل البشرى نفسه للبحث، وقد سمى النظام الذى وضعه هذا العالم «بالنظام الانتقادى» تمييزا له عن الطريقة التى كانت متبعة من قبل والتى لقبها هو «بطريقة التسليم » — بَحَثَ « كانت » فى أصل المعرفة وفى وجودها ،

(١) تصرفنا فى هذه الجملة لأنا رأينا الأصل لا يتفق مع سياق الكلام واعتمدنا فى تغييرها على ما ذكره فندلبند فى هذا المعنى ص ٥٣٧ (المعرب).

(٢) ربما كان فى هذا الموضوع غموض وسيأتى فى آخر فصل فى الكتاب شرح يزيل غموضه .

فى منبعها وحدودها، فى أساسها وفى صحتها، وبعد أبحاث « كانت » فى منبع المعرفة وشرح شروطها استطاع الانسان أن يحدّد دائرتها ومجالها وما كان يستطيع ذلك من قبل، وبذلك وجه « كانت » الفلسفة الحديثة وجهة جديدة ظلت متجهة اليها الى اليوم، واليه يرجع الفضل فى مذهب المثال الألمانى الذى وضعه « فِخْته » و «شِلنْج» و «هِجِل» . وقد أضاف التقدّم الحديث فى العلوم الطبيعية الى تعاليم « كانت» ومذهب المثال الألمانى مسائل كثيرة جديدة ، وكان هذا المذهب يوجه أكبر اهتمامه للبحث فى أعمال العقل، ولكن ما لبث أن التفت الانسان ثانية — ولا سيما فى انجلترا — للبحث فى تاريخ الانسانية وفى الأشياء الخارجية والعلوم الطبيعية ، وأصبح أهم نظريات العصر الجديد نظرية النشوء والارتقاء التى تشغل الآن أنظار أكبر الباحثين .

فصل فى تاريخ الفلسفة الاسلامية

يقول معرّب هذا الكتاب لم يذكر المؤلف كلمة واحدة عن الفلسفة الاسلامية وبعبارة أخرى «الفلسفة عند العرب» كأنهم لم يشتغلوا بالفلسفة ولم يعنوا بها . ولعل عذره فى ذلك أنه إنما ألف كتابا مختصرا لمبتدئين أوروبيين لا يهمهم كثيرا إلا فلسفة بلادهم — وإذ كنا قد نقلنا كتابه الى العربية رأينا من تمام الفائدة

أن نزيد كلمة إجمالية عن الفلسفة العربية وتاريخها، حتى نكون قد أتممنا للقارئ العربى الصورة التى ينبغى أن يرسمها فصل «تاريخ الفلسفة» فنقول :

كانت العرب فى جاهليتها أمة أمية ندر فيهم القارئ والكاتب، ولم يعرف عنهم أنهم بحثوا فى علم ودوّنوه، وهذا طبيعى فى الأمم المتبدية، وإنما كانت لهم معارف أرشدتهم اليها التجارب والنظر ونوع المعيشة، فمعيشة كثير منهم مثلا فى الصحراء حيث السماء صافية والجو مفتوح، وحاجتهم الى الأمطار وهبوب الرياح، لفت نظرهم الى السماء فعرفوا شيئا عن النجوم، وربطوا بها كثيرا من ظواهر الجو يدل على ذلك ما وضعوا من أسماء النجوم والمنازل والأنواء . ولكنهم لم يبحثوا فى ذلك بحثا علميا ولا دوّنوه كما تدوّن العلوم، ولم يكن لهم بالضرورة فلاسفة يدعون الى مذاهب معينة، ولا يضعون مبادئ للسير عليها فى الحياة كالذى رأينا عند اليونان، ذلك لأن العلم والفلسفة لا يكونان إلا حيث تعظم المدنية، فيسهل تحصيل المعاش وتتوافر أسباب العلم — إنما كان عند العرب حكماء وشعراء قاموا فيهم مقام الفلاسفة فى الأمم المتحضرة، يفوهون بالحكم وتعدّ أقوالهم أمثالا تؤثر فى نمط الحياة، كالذى حكى عن لقمان الحكيم وأكثم بن صَيْفيّ، وزهير بن أبى سلمى — وقد أثر فى حياتهم وعقولهم ما وصل اليهم من تعاليم الأديان السابقة

ولا سيما دين إبراهيم عليه السلام واليهودية والنصرانية . فشت اليهودية فى حمير وبنى كنانة وكندة ، وفشت النصرانية فى ربيعة وغسان . وكذلك كان له الأثر فيهم مانقلوه عن الفرس والروم والهند من القصص المشتملة على المواعظ والحكم ، وقد كانت التجارة واسطة النقل ، وكان العرب يكثرون التردّد الى بلاد هؤلاء للتجارة .

ثم جاء الاسلام (٦١٠ م) فوحد دينهم ولغتهم وأميالهم ، وقد كانت متعدّدة ، وملك الدين عليهم نفوسهم فكانت الحياة حياة دينية ، وسياسة الحكومة سياسة دينية ، والتشريع تشريعا دينيا . لذلك كان البحث فى عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية (الى سنة ١٣٢ هـ) إنما كان بحثا فى الأمور الدينية أو ما يتعلق بها ، والسبب فى ذلك : (١) أن المسلمين رأوا ما صارت اليه دولة الاسلام من العز وكثرة الفتوح ، وهم يعلمون أن لا سبب لذلك إلا دينهم الجديد فزادهم ذلك اتجاها نحوه . (٢) ان كثرة الفتوح واتساع المملكة يستدعى حدوث أمور لم تكن فى عهد المشرع وليس لهم أن يحكموا فيها بمجرّد الرأى بل يعتقدون وجوب الاستعانة بقواعد الدين ولا يمكنهم ذلك إلا اذا اشتغلوا بالدين . (٣) ان القرآن ملك عليهم نفوسهم من نواح كثيرة من ناحية البلاغة وحسن القصص ولفت النظر فدعاهم ذلك الى الانكباب عليه .

من أجل هذا كله كان مدار البحث في هذا العصر هو الدين، ومن نقل خبرهم من علماء هذا العصر هم علماء دين إلا قوما ترجم لهم صاحب كتاب «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» والظاهر أن هؤلاء كانوا يمارسون الطب على أنه صناعة لا علم، وإلا ما حكاه ابن خلكان فى ترجمة خالد بن يزيد (توفى سنة ٨٥ هـ) من أن له كلاما فى الكيميا والطب ورسائل دالة على معرفته وبراعته، وفى ترجمة جعفر الصادق (٨٠ — ١٤٨) ان له كلاما فى صناعة الكيميا — والكيميا التى اشتغل بها خالد وجعفر — ان سلم أنها علم كان يشتغل به — لا يطعن فيما تقول من أن العلم الشائع لهذا العصر هو علم الدين.

وفى آخر الدولة الأموية كانت لهم أبحاث دينية مما هو من أبحاث علم الكلام أو ما بعد الطبيعة، فبحثوا فى حرية الارادة وأن الانسان مجبور أو مختار، وفى مرتكب الكبائر أمؤمن أم كافر، وفى خلق القرآن ونحو ذلك، وانحاز المسلمون الى فرق وتجادلوا وكل يدلى بالحجة، وبحثوا كذلك بحثا سياسيا مصبوغا بالصبغة الدينية فيمن يكون خليفة المسلمين وما ينبغى أن يستوفيه من الشروط، وكان للخوارج الفضل فى إثارة الأذهان للبحث فى هذه المسائل السياسية ولكن شيئا من ذلك لم يدوّن كأنه علم .

فلما جاءت الدولة العباسية (١٣٢ — ٦٥٦ هـ) عظمت حضارة المسلمين، وهضموا ما أخذوه — بالفتح — عن الفرس

والروم والهند، ونقلوا علوم الأمم التى سبقتهم فى المدنية ولا سيما الهند واليونان . وفى زمن أبى جعفر المنصور والرشيد والمأمون ومن بعدهم، ولا سيما المأمون، توسع الناس وخاصة السريانيين — فى ترجمة علوم اليونان على اختلاف أنواعها : من طب وهندسة وهيئة وتقويم بلدان، وفلسفة بفروعها المختلفة من طبيعيات وإلهيات ومنطق ونفس وسياسة وأخلاق — الى اللغة العربية فترجموا فى القرن الثانى والثالث للهجرة كتب أفلاطون وأرسطو وأقليدس وبطليموس وجالينوس وغيرهم ، وبحثوا فيها وتداولوها يشرحونها مرة ويختصرونها أخرى ، وخصص كثير من المسلمين حياتهم لدراسة لفلسفة وتفهمها فكانوا بعدُ فلاسفة .

وكان أغلب مؤسسى الفلسفة عند العرب ومؤيديها أطباء وعلماء فى الطبيعيات أكثر منهم رجال دين، وعلى العكس من ذلك فلاسفة الغرب فى القرون الوسطى فقد كان أكثرهم قساوسة . ولهذا لم يقصر المسلمون نظرهم على الإلهيات ، بل كان البحث فى الطب القديم والعلوم الطبيعية عندهم يسير جنبا لجنب مع البحث فى الإلهيات وما وراء الطبيعة، وترجموا كلام جالينوس فى الطب وأقليدس فى الهندسة كما ترجموا كلام أرسطو فى الإلهيات[1] .

(١) أنظر فندلبند صفحة ٣١٦

غير أنه يظهر أن ما ابتكروه من عند أنفسهم قليل اذا قيس بما نقلوه من اليونان ، نعم أنهم فى بعض فروع العلم كالكيمياء وعلم المعادن والطب وعلم وظائف الأعضاء كان لهم أثر ظاهر، واستكشفوا من القوانين ما لم يصل اليها اليونان قبلهم، ولكنهم فى غير ذلك من فروع العلم كالمنطق والنفس والأخلاق كانوا نقلة أكثر منهم مبتكرين، وكانوا فى طريقتهم العلمية ونظامهم فى البحث وأنظارهم الى العالم وترتيب فلسفتهم وقواعدهم متأثرين تأثرا عظيما بفلسفة أرسطو والأفلاطونية الحديثة .

ولهم الفضل على الغرب بكل مما نقلوا أو ابتكروا ، فكثير من كتب اليونان وأبحاثهم ما كان يصل اليها الغربيون لولا حفظ العرب لها ودراستهم اياها ، كما أن كثيرا من مبتكراتهم واختراعاتهم تعدّ — بحق — من أسس المدنية الغربية .

ابتدأ المسلمون لأوّل عهدهم بالفلسفة يدرسون الفلسفة «الأفلاطونية الحديثة» (وهى مذهب مزيج من الفلسفة والدين ظهر فى أواخر القرن الثانى للميلاد، وكان مقرّه الأصلى الاسكندرية، حاول مؤسسوه التأليف بين الدين المسيحى والمذاهب الشرقية ومذاهب اليونان ولا سيما أفلاطون، وأطلق عليه « فلسفة أفلاطون الحديثة» ومن أشهر دعاته أفلوطين ولد فى مصر سنة ٢٠٤م قيل أنه رحل الى فارس ودرس الفلسفة الشرقية وعلم فى رومة

من سنة ٢٤٤ م ومات نحو سنة ٢٦٤ م ، وكانت تعاليمه مزيجا من الفلسفة العلمية والتصوف الدينى) والذى دعا المسلمين الى اعتناقهم هذا لضرب من الفلسفة أنها كانت فاشية لعهدهم فى الشام وأنها مصبوغة بالصبغة الدينية ، ثم ارتقوا منها الى النظر فى فلسفة أفلاطون وأرسطو ، ولكن كانت قد غلبت عليهم فلسفة أفلاطون الحديثة ، فلما أن نظروا بعد فى فلسفة أفلاطون وأرسطو نظروا اليها بعيون متأثرة بالأفلاطونية الحديثة .

وأول من اشتهر من المسلمين بالفلسفة يعقوب الكندى ويلقب «بفيلسوف العرب» لأنه عربى صميم تبحر فى الفلسفة وقد كان تابعا للأفلاطونية الحديثة وتعاليم أرسطو أكثر منه فيلسوفا مستقلا ، وأكثر ما له من الفضل جاء من ناحية الترجمة والنقل ، وقد ظهر له فى عهد المأمون والمعتصم كتب كثيرة بعضها ترجمة وبعضها تأليف وصل الينا من أسمائها نحو ٢٥٦ كتابا عدها صاحب أخبار الحكماء ، وفهرست ابن النديم ومات نحو سنة ٢٦٠ هـ .

وجاء بعده أبو نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ عاش تحت كنف سيف الدولة بن حمدان وكان يعرف لغات كثيرة وبرز فى الموسيقى والرياضيات وعلم اللغة والفلسفة ، درس فلسفة اليونان ومهر فيها ، وقد كان كالكندى تابعا للأفلاطونية الحديثة (وان لم يعرف هو هذا الاسم) وتعاليم أرسطو ، وكان معشوقه من فلاسفة

اليونان أرسطو حتى قيل إنه وجد «كتاب النفس» لأرسطو وعليه بخط الفارابى «انى قرأت هذا الكتاب مائة مرة» وقد لقب بالمعلم الثانى — والمعلم الأول هو أرسطو — لحله معميات الفلسفة اليونانية، وكان الفارابى كسائر فلاسفة المسلمين يرون أن الاسلام من قرآن وسنة حق، وأن الفلسفة حق، والحق لا يتعدد، فوجب أن تكون الفسلفة والاسلام متفقين، غير أنه يؤخذ على فلاسفة الاسلام أنهم لم ينظروا الى الفلسفة اليونانية — كما كان ينبغى أن ينظروا اليها — من أنها مجموعة أقوال ومذاهب قد يناقض بعضها بعضا، وأن ما يذهب اليه أرسطو فى مسألة قد يكون مناقضا لما يذهب اليه أفلاطون فيها ، بل نظروا اليها كأنها حقيقة واحدة ملتئمة ، وقالوا أن أفلاطون قد يختلف مع أرسطو فى طريقة البحث أو التعبير عن المقصد ولكن آراءهما فى الفلسفة واحدة،[1] وصلت اليهم تعاليم أفلاطون كما حكاها فورفريوس « وهو من أصحاب مذهب الأفلاطونية الحديثة» وتعاليم أرسطو كما حكاها متأخرو المشائين ودخل عليهم فيما نقل اليهم من فلسفة اليونان — ولا سيما فلسفة أرسطو — خلط وتشويش . يدل على ذلك أنه فى زمن المعتصم ترجم أحد نصارى لبنان جزءا من أنيسده[2] أفلوطين

(١) انظر (Boer) ص ١١.١ و (Mackdonald) ص ١٦٢

(٢) لأفلوطين ٥٤ كتابا ذكرها تلميذه فورفريوس و يطلق عليها اسم أنيسده (Enneads)

الى العربية وسماه «لاهوت أرسطو»! وتلقى المسلمون كل ذلك بالقبول، وعدّوا أقوال الفلاسفة المختلفة شرحا لحقيقة واحدة، فبذلوا جهدا عظيما فى التوفيق بين أقوال أفلاطون وأرسطو، وزاد عليهما المتدينون «القرآن» وهذا ما فعل الفارابى، فقد كان مؤمنا بأقوال أرسطو وأفلاطون منزها للقرآن عن الخطأ، فمزج اللوح والقلم والكرسى والعرش والملائكة والسموات السبع بتعاليم اليونانيين الوثنيين مع ما بين أجزائها من التناقض، ومحاولة ذلك تستدعى ذكاء نادرا وتصوّفا و«كشفا» وغموضا وسَبْحا فى الخيال.

وبحث الفارابى كذلك فى السياسة فى كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» واختار من أشكال الحكومة الملكية الدينية ومزج فى هذا الكتاب بين آراء أفلاطون فى «الجمهورية» وبين أقوال الشيعة فى الامام المعصوم اذ كان سيف الدولة بن حمدان مقرِّبُ الفارابى وحاميه شيعيا (١).

وممن لهم أثر كبير فى الفلسفة الاسلامية جمعية شبه سرية تسمى «إخوان الصفا» اجتمعت فى البصرة نحو منتصف القرن الرابع للهجرة ودعاهم الى جعلها سرية كره عامة الناس وعامة المتدينين للفلسفة ومن اشتغل بها ومحاولتهم ايقاع الأذى بالفلاسفة، وقد عدّ القِفْطى فى أخبار الحكماء أسماء خمسة من أعضائها وكان

(١) انظر (Mackdonald) ص ١٦٥

قصـــدهم نشر المعارف بين المتعلمين فى جميع الأقطار الاســـلامية وتغيير أفكارهم الدينية والعلمية ـ قالوا "إن الشريعــة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية" «وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصـــل الكمال[1]» فألفوا إحدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصـــة أنواع العلوم المعروفة لعهدهم فهى « دائرة معارف » تشـــتمل على معارف العرب إذ ذاك باختصار، قالوا فى أوّل هذه الرسائل "إن الحكماء والفلاســـفة الذين كانوا قبل الاسلام تكلموا فى علم النفس ولكنهم لمـــا طوّلوا الخطب فيها، ونقلها من لغة الى لغة من لم يكن قد فهـــم معانيها ، حرفها وغيرها حتى انغلق على الناظر فيهـــا فهم معانيها ، ونحـــن قد أخذنا لب معانيها وأقصى أغراضهم فيهـــا وأوردناها بأوجز ما يمكن من الألفاظ والاختصار فى إحدى وخمسين رسالة اهـ" .

وكانت تعاليمهم فيها كذلك مزيجا من أبحاث «الأفلاطونيـــة الحديثـــة» والتصوّف وما قاله أرسطو فى العـــلوم الطبيعية وما قاله الفيثاغوريون فى العدد «الرياضة» وقد كان لها أثر كبير فى العقول بانتشارها بين الناس ولكن فيها من الخلط والتشويش ما ذكر قبل.

---

(١) أخبار الحكماء .

وقد ظن بعض الباحثين أن هذه الجمعية جمعية باطنية «اسماعيلية» لما بين ما يجيء فيها أحيانا و بين تعاليم الباطنية من التطابق، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعة «أَلَمُوت» (وكانت فى يد الاسماعيلية) على كثير من نسخ الكتاب[1].

وكان لأبى على بن سينا البخارى (٣٧٠ — ٤٢٨ هـ) شهرة فائقة فى الفلسفة، وفلسفته تقرب من الفلسفة الأرسططاليسية الصرفة، ور بما كانت أقرب فلسفات المسلمين اليها، وكتابه «القانون» كان العمدة فى الطب فى القرون الوسطى عند الشرقيين والغربيين معا[2] وله فضل كبير فى نشر الفلسفة بين الناس بمؤلفاته العديدة ولا سيما الإلهيات والمنطق — هذا الى كثير من أمثال هؤلاء الفلاسفة كالبيرونى وابن مسكويه وابن الهيثم .

وقد كان انتشار الفلسفة بين المسلمين فى القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة سببا فى حركة جديدة قام بها المتكلمون (علماء الكلام) يريدون بها مقاومة تعاليم أرسطو وأفلاطون والأفلاطونية الحديثة المتعلقة بالالهيات أو الرد عليها ودحضها، فنشأ من ذلك أبحاث كلامية كثيرة فبحثوا فى العلة والمعلول والزمان والمكان والحركة والسكون والجوهر الفرد والدور والتسلسل ونحوها، ولم تكن ردودهم موجهة الى الفلاسفة فحسب، بل الى كل من خالف سنتهم

(١) (Mackdonald) ص ١٦٩ (٢) فندلبند .

من معتزلة وزنادقة وفلاسفة وظاهرية وحنابلة ومن أعلام هذه الطريقة أبو الحسن الأشعرى وامام الحرمين والباقلانى ، ولكن أحد امنهم لم يخص الفلسفة بالطعن ولا ردّ عليها من جميع جهاتها حتى جاء الغزالى (٤٥٠ — ٥٠٥ هـ) فدرس الفلسفة اليونانية درسا دقيقا — كما حدّث هو عن نفسه — ثم حمل عليها حملة شديدة من جميع جهاتها ، وألف فى ذلك كتابه المشهور «تهافت الفلاسفة» وكفّر الفلاسفة لبعض تعاليمهم ، وأظهر منافاة الفلسفة لتعاليم الدين ، ودعا الناس الى الرجوع الى دينهم الصحيح الخالى من الفلسفة ، ورغب فى التصوّف وأبان أنه الطريق الحق الى الله ، وكان بليغا فى قوله مخلصا فى حديثه سهل العبارة قوى الحجة ، فأثر ذلك فى المسلمين أثرا كبيرا ، وكان من آثاره أن حوّل الناس عن الاشتغال بالفلسفة ، ورجعهم الى الكتاب والسنة ، وأعلى شأن التصوّف والصوفية وحبب ذلك الى الناس . وسار على طريقة الغزالى كثيرون من بعده .

هذا مجمل حال الفلسفة فى الشرق أما فى المغرب أعنى فى الأندلس وشمالى أفريقية فقد أزهرت الفلسفة — حينا — أكثر من أزهارها فى الشرق . وكان فلاسفة الأندلس والمغرب أكثر ابتكارا من فلاسفة المشرق ، وكان يندر بين مسلمى الأندلس الخلاف فى العقائد والمذاهب كالذى كان عند المشارقة ، فكلهم إلا القليل مالكى

سُنّى، أخذوا الفلسفة عن أهل المشرق فقد كان منهم رُحّل اليه، رحلوا عن طريق القاهرة وأمعنوا فى الرحلة حتى الى فارس وانتفعوا بعلومهم، وجاء الحَكَم الثانى (٣٥٠ — ٣٦٦ ﻫ) فبعث فى شراء الكتب الى الأقطار رجالا من التجار فجمعوا اليه كتبا جمة، فاشتغل الأندلسيون بالرياضة والعلوم الطبيعية والتنجيم والطب بعد أن نقلت اليهم كتب الفارابى ورسائل اخوان الصفا وطب ابن سينا، وقد تعاون المسلمون واليهود معا على الاشتغال بالفلسفة فى الأندلس، ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون، مع مقاومة العامة وأشياعهم مقاومة أشدّ من مقاومة المشارقة .

ومن أشهرهم : (١) ابن بَاجّة وقد اتبع تعاليم الفارابى . (٢) وأبو بكر بن طُفَيْل (مات سنة ٥٣١ ﻫ) وصل الينا من تآليفه رواية «حَىّ بن يَقْظَان» وكان بطلها «حى» يعيش فى جزيرة لا يسكنها أحد من الناس وليس له علاقة بأحد من أهل الجزائر الأخرى، بحث بعقله بحثا منطقيا متدرّجا من البسيط الى المركب حتى وصل الى الاعتقاد بالله، وغرضه فيها أن يبين أن الشرع يتفق مع العقل، وقد ترجمت الى اللاتينية وظهرت سنة ١٦٧١ م وسنة ١٧٠٠ ولم يمض على ظهورها عشرون سنة حتى ظهرت رواية روبنصن كروسو [١] .

---

(١) فندلبند — ورواية روبنصن كروسو احدى الروايات الانجليزية الشهيرة لمؤلفها «ديفو» فرض فيها بطل الرواية قد عاش فى جزيرة وحده بعد أن كسرت مركبه وأمكن أن يصل بعقله الى كثير من الأمور .

(٣) ابن رشد وهو أشهر فلاسفة الأندلس على الاطلاق (٥٢٠ — ٥٩٥ هـ) كان يعدّ أرسطو أكبر الفلاسفة وقد شرح تعاليمه حسبما وصلت اليه ، ودافع عن الفلسفة وألف كتابه «تهافت التهافت» ردا على الغزالى فى طعنه على الفلسفة، وأبان فى كتب أخرى أن الفلسفة لا تناقض الدين، وألف فى ذلك كتابا صغيرا سماه « فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال» وأكثر مؤلفاته لاتوجد بالعربية وانما موجود ترجمتها، من ذلك شرح أقوال أرسطو مع الرد على الغزالى رتبت وطبعت باللاتينية فى البندقية سنة ١٥٦٠ م فى أحد عشر مجلدا، وترجم له كتاب فى الطب طبع كذلك فى البندقية، وله كثير من المؤلفات مترجم الى اللغة العبرانية. وكان لفلسفته شهرة فى الكنائس والمدارس الأوروبية منذ القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) .

وبانتهاء القرن السادس الهجرى تقريبا وقف المسلمون عن البحث الفلسفى والنظر فى العلوم الكونية، ولم يكن العلم إلا نقلا، فالمؤلف ينقل عمن قبله فحسب ، حتى لا تكاد تجد فى كتاب جملة ذات معنى جديد ، والمعلم انما يعلّم ما سمع من أساتذته ، والاختلاف الذى يظهر بينهم إنما هو اختلاف فى الشكل لا فى الجوهر (وليس ثمت مجال للبحث فى أسباب ذلك) ولم ينبغ منهم نابغ مبتكر ذو شخصية ظاهرة إلا ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨هـ)

فانه باجماع الشرقيين وكثير من الغربيين مخترع فلسفة التاريخ أو علم الاجتماع ، وأكبر الباحثين فيه فى الشرق والغرب الى القرن التاسع عشر الميلادى ، فبحث فى « أحوال العمران ، فى الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية» وكما قال هو فى مقدمة كتابه " ان كثيرا قبله حوموا على الغرض ولم يصادفوه ولا تحققوا قصده ولا استوفوا مسائله" وأمل ممن يأتى بعده أن يستمروا فى البحث ويضعوا ما فاته من المسائل ... وقد تحققت أغراض ابن خلدون ولكن لم يكن الذى حققها هم المسلمين[1]، بل أوجست كومت وسبنسر وأمثالها « وكما كان ابن خلدون فى هذا الموضوع هو السابق فلم يكن له بين المسلمين لا حق[1] » .

وأما من عداه فداروا فى دائرة ضيقة وكانت عنايتهم بالمسائل اللفظية تفوق العقلية ، قصروا نظرهم على كتب للتأخرين محدودة لاتبعث شوقا الى علم ولاتهيج العقل الى بحث ، قدألغزوا فىمعانيها وركزوا ألفاظها ، فوجه المتعلمون أعظم جهدهم الى حل معمياتها وتفسير أغراضها وقليلا من الجهد — ان كان — الى نفس الموضوع .

وكان العلم والفلسفة قد صار شوطا بعيدا فى الغرب ، والشرق جامد فى مكانه ، وبدأ الشرق يغالب النوم والنوم يغلبه ، ويصارع

(١) انظر (Boor) ص ٢٠٨

الكسل والكسل يصرعه، حتى أزعجته الحوادث وأقلقت راحته ضوضاء احتكاك الشرق بالغرب ، فانتبه متأخرا وأحس بتأخره ونقصان علمه وضرورة التعلم حتى يستطيع مشاركة غيره فى شؤون الحياة، وما أحوجه اليوم الى هداة يضيئون له السبيل، ويأخذون بيده فى هذا المعترك اللجب ، وينقلون اليه زبدة ما وصل اليه الغرب فيمعن النظر فيها ويهضمها بعقله الشرقى، ويكوّن له مدنية وعلما تتفق مع ذوقه وجوه ودينه، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

الكتاب الثاني

مسائل الفلسفة ومذاهبها

الفصل الأول

مقـــدمة المـــؤلف

١ — إن الموضوعات التى تبحث فيها الفلسفة والمسائل التى يحاول حلها لعديدة، فكل ما هو علمى محض أو يترتب عليه فائدة عملية للانسان داخل فى نطاقها، ونحن نرتب تلك الموضوعات والمسائل على حسب الاجابة عن ثلاثة أسئلة كبرى : ما وكيف ولمـاذا ؟

ما حقيقة الموجود ؟ وكيف وجد؟ تلك مُعَمَّيات نيط بحلها «علم ما بعد الطبيعة» . ماذا نعرف عن الأشياء الموجودة وكيف نعرف؟ أسئلة تشتغل بالبحث عنها فلسفة المعرفة . ماذا ينبغى أن نعمل ؟ ولِمَ نعمل فى طريق خاص دون غيره؟ أسئلة يجيب عنها علم الأخلاق . وعنـد الاجابة عن هـذه الموضوعات كلها نشأت مذاهب ونظم فلسفية متنوعة، فكل إنسان وكل فيلسوف أجاب عنها حسب رأيه وأخلاقه — وربما زدنا — وحسب الظروف المحيطة به وحسب تربيته وروح العصر الذى هو فيه، وقد لاحظ «فختـه» ملاحظة صحيحة أن نوع الفلسفة الذى يختاره الانسان

مرتبط إرتباطا كبيرا بطبيعة الانسان نفسه ، ويجب أن يزاد على ذلك أنه مرتبط كذلك بروح العصر .

وليس للفلاسفة من الزمن ما يكفى للبحث فى كل المسائل، فالحياة قصيرة والعقل البشرى محدود ومحصور مهما كان متوقد الذكاء واسع النظر، ولهذا شغل كل طائفة من الفلاسفة بالبحث فى طائفة من المسائل ، فتنوعت النظم الفلسفية ولم يكن التنوّع مقصورا على أن كل جماعة خصصوا أنفسهم لدراسة نوع خاص من المسائل فحسب، بل هم قد يختلفون فى المسألة الواحدة وتتنوّع إجاباتهم عليها، ويمكننا مما تقدّم أن نقسم المسائل الفلسفية الى ثلاثة أقسام :

(١) مسائل ما بعد الطبيعة أو علم الوجود .

(٢) المسائل الأخلاقية .

(٣) المسائل المتعلقة بنظرية المعرفة .

الفصل الثانى

مسائل ما بعـــد الطبيعة

١ — على هرم فى هيكل « ايزيس » (Isis) بصا الحجـر (Lais)[(١)] نقش قديم يتضمن الكلمات الآتية :

« أنا كل شيء كان، وكل شيء كائن، وكل شيء سيكون، ومحال على من يفنى أن يزيل النقاب الذى تنقب به من لا يفنى» أما العـلم الحديث فيعتقد أنه كشف هـذا الحجاب وأن « القوة » و « المـادة » همـا كل شيء كان وسيكون، وليس هـذا موضع البحث فيما اذا كان ما يزعمه العلم حقا أو باطلا، وإنما الذى نريد أن نقوله أن العقل البشرى بذل جهـده فى رفع النقاب، وحاول معرفة هـذا السر المحتجب بحميّـة وغيرة، ولكن لا نتعرّض للحكم بنجاحه أو خيبته .

طالع العقل البشرى لغز هذا العالم من وجوه عديدة وشرحه، وكان السؤال الأوّل من بين الأسئلة الثـلاثة التى لا ينفك يحاول

---

(١) ايزيس (Isis) آلهة مصرية زوجة أوزيريس انتشرت عبادتها من مصر الى اليونان وروما وكانت عبادتها تنافس النصرانية و (Lais) هى صا الحجر وهى فى مركز كفر الزيات تبعد عن فرع رشيد بنحو ألف متر (المعرب) .

الاجابة عنها — وأعنى بها : (١) ما حقيقة الموجود، الذى هو من اختصاص ما بعد الطبيعة ؟ . (٢) وما حقيقة المعرفة ؟ . (٣) وماذا ينبغى للانسان أن يعمل — هو أهم ماهيج فى الانسان الميل الى حب الاستطلاع ، واختلف الفلاسفة فى الاجابة عنه فى العصور المختلفة، ونشأ عن ذلك مذاهب فيما بعد الطبيعة .

لو أنا سألنا إنسانا عاديا عمليا : « ما الموجود ؟ » أجابك من غير تردّد بقوله : كل شيء حولى موجود وكثيرة هى الأشياء، فكل ما أرى وأسمع ، وكل ما أمسك وألمس ، والسماء، والأرض، والأشجار والأنهار، والشمس والنجوم ، والطير فى الهواء، والسمك فى الماء، والوحوش فى الغابات، وعلى الجملة كل ما أرى وأمسك وألمس كائن موجود — ولكن يرى الانسان بين هذه الموجودات فروقا واختلافا « فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع » طائر وغير طائر ، متحرّك وغير متحرّك ، والمتحرّك حى، وغيره فاقد الحياة ، والحىّ اذا لمسه الموت فقد الحركة .

أنّى لنا هذه الأعضاء وتلك القوّة العاصفة التى فينا ،ودم الحياة وما يبعث من شهوات، ثم بعد قليل يصير ذلك كله ترابا ،ويذهب التراب هباء كأن لم يغن بالأمس ؟ هنا يتساءل عن علة هذا التغير وتلك التقلبات .

وقد وضع الشاعر «بَيْرُون» الأبيات الآتية على لسان قابيل وقد رأى أخاه «هابيل» ميتا ولم يكن رأى الموت قط :

أخى ما دهاك وكنت صباحا قَوِىَّ الفؤاد قوى البدن
على العُشْب مُلْقًى ، فما ذا عَرَاكْ؟ أنومٌ؟ وما الوقت وقت الوسن
سَكَنْتَ وأمسك منك اللسان وهل مات حى اذا ما سكن؟
أَلَا ما هلكت ، وان كان فى شحوبك معنًى يهيج الحزن

وصل العقل البشرى الى نتيجة وهى أن هناك شيئا لا يدركه النظر، ندركه بعقولنا ولا ندركه بعيوننا ، ليس بمادة ولكن يسكن الأجسام الحية، وذلك هو الروح أو النفس . وهى التى تمنح ما تحل فيه حركة وحياة، فاذا انسلت منه فلا حياة ولا حركة، وترى الأمم مجمعة على الاعتقاد بالروح حتى أن علم اللغة أثبت أنه لم تخل لغة من لفظ يدل عليها — فالانسان من مبدأ أمره يميز بين المادة والروح — حتى من قبل أن يتفلسف، فالمادة تفنى والروح تبقى.

قال « بيرُون » :

وهيهات لا تفنى جميعا وانما لديك من الاسرار باق مخلد

ولما لم يقنع الفيلسوف بهذه الأقوال المبهمة الساذجة حاول أن يضع مبدأ أساسيا يحيط بكل موجود، وعنه يصدر كل شىء. قال قائلون : "لا شىء غير الروح وليست المادة إلا ظاهرة من ظواهرها" ويسمى هؤلاء بالروحانيين . وقال آخرون "لا شىء

غير المادة وليست الحياة والحركة إلا وظيفة من وظائف المادة أو صفة من صفاتها ، حتى اذا عرا المادة الانحلال فلا حياة " ويسمى هؤلاء بالماديين . وذهبت طائفة ثالثة الى أن هناك أساسين متحدين امتزج بعضهما ببعض ، وهما المادة والروح ، ويسمى هذا المذهب « بالاثنينية » تمييزا له عن القولين الأولين الذاهبين الى أن هناك أساسا واحدا إما المادة والروح ، ويسمى مذهب هؤلاء « بالواحدية » .

المادية والروحانية

٢ — فى إحدى حجر الفاتيكان صورة شهيرة فى حائط ، صوّرها «روفائيل» تسمى مدرسة أثينا ، مركز هذه الصورة أرسطو وأفلاطون ، يحيط بهما أتباعهما وتلاميذهما وفيها يشير أفلاطون بأصبعه الى السماء ، وأرسطو يصغى الى قوله فى فتور مشيرا بيده اليمنى الى الأرض . هذه الصورة تمثل تاريخ المذاهب فى أثينا ، بل وتمثل تاريخ الفكر الانسانى والنظريات الفلسفية فى كل العصور ، تمثل المادية والروحانية اللتين ثارت الحرب بينهما من ذلك العهد الى الآن ، فالروحانية تشير الى السماء والمادية الى الأرض .

المادّية

٣ — تطلق « المادّية » على المذهب القائل بأن الظواهر المتعدّدة للأشياء ترجع الى أساس واحد (هو المادة) ويرى أن

العالم مجموعة مكوّنة من شيء واحد، ويذهب الى أن المادة أساس كُل شيء، وينكر وجود روح قائمة بنفسها قد تتصل بالمادة وقد تنفصل عنها «كالحصان يربط فى العجلة ويحل منها». قال مُولِيشُتْ "مضى الزمن الذى كان يقال فيه بوجود روح مستقلة عن المادة".

فالماديون يرون أن لا شيء غير المادة، مخالفين فى ذلك الروحانيين، كما أنهم يخالفون الاثنينيين القائلين بأن الظواهر لا ترجع الى شيء واحد بل الى أصلين : المادة، والروح أو العقل. ويرى هؤلاء الماديون أن ما نسميه العقل ليس إلا شكلا من أشكال المادة الدائمة التغير والتنوّع، وليست المادة كتلة عديمة الحياة لا حراك بها، تأتى اليها الروح وهى منفصلة عنها فتنفخ فيها وتنتج حياة، وانما القوّة ملازمة للمادة ومظهر من مظاهر المادة المتنوعة، والحياة والفكر ليستا إلا صفتين غريزيتين للمادة ونتيجة لامتزاج جزيئات المادة مزجا معقدا.

وليس القول بوجود قوّة وروح وآلة منفصل عن المادة يسبح فوقها يدفعها ويسخرها إلا قولا خاملا هراء فى نظر المادى العصرى «موليشت»، ومن السخف عنده القول بوجود روح مجرّدة وقوّة خالقة مغايرة للمادة.

نكرر القول (على مذهبهم) بأن كل الظواهر النفسية ليست إلا وظيفة لأحد أعضائنا — وهو المخ — فالأفكار والارادات

والعواطف تتوقف على قوة المخ وعمله وحجمه وتركيبه ، وعلم النفس انما هو فرع من علم وظائف الأعضاء يبحث فى المخ ، وليس الفكر إلا حركة للمادة ينعدم بانعدامها ، وأعمال العقل مظهر خاص لقوة حية نشأ عن تركب المخ تركبا خاصا ، والانسان يفكر بواسطة المخ كما يهضم بواسطة المعدة ، وليس القول بوجود نفس منفصلة عن الجسم مستقلة عن المادة إلا لغوا اختلقه فلاسفة علم النفس ليس له قيمة علمية ، وعلى الإجمال فكل شيء إما مادة أو مظهر من مظاهر المادة ، والمادة لا تُحَدّ ولا تفنى ، وقوانينها أبدية لا تتغير ، وهذه المادة لم يخلقها الله ولا الانسان بل هى قديمة أزلية أبدية لا تتغير ولا تفنى وليس فى هذا العالم شيء يعتريه الفناء ولا ذرة واحدة وانما تتغير الأشكال :

خفف الوطء ما أظن أديم الـ ـأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وان قدم العهـ ـد هوان الآباء والأجداد

قال شكسبير :

يعتري قيصرَ العظيمَ حِمَامٌ وتُحيلُ الوجودَ أيدى الفناء
فاذا قيصرُ المعظم طين سَدّ فى ثُلمةٍ ممر الهواء

وقد ذهب الأستاذ « كارل نخت » الى أبعد من هذا فى تعريفه للفكر ، فقال ان المخ يفرز الفكر بعين الطريقة التى يفرز بها الكبد الصفراء والكلية البول .

والنفس والحياة والفكر ولوجدان كلها ثمرة المادة، وكلها كائنة فى كل ذرة من المادة وانما تظهر اذا تركبت الذرّات ، وكلما كانت مادة العضو أكثر تركبا كانت وظائفه أكثر تعقدا، والمخ من أعجب الأعضاء وأدقها وأجملها تركبا، ووظيفته الفكر، فليست المادة كتلة صلبة جامدة خالية من الحركة الذاتية، عقيمة لا تنتج مظاهر الحياة والعقل والشعور إلا بمعونة قوّة أخرى، وليست المادة دائما محسوسة منظورة، وانما المادة تحتوى ملايين لاتحصى من الجُزَيْئَات على حالة عادية غير منتظمة ولا منظورة ، وبتحرك هذه الجزيئات حركات متناسقة تتخذ المادة أشكالا متنوّعة وينشأ عنها ظواهر متعدّدة من خشونة ونعومة ولون وحركة وامتداد وحجم الى ما عدا ذلك مما ليس إلا نتيجة عمل المادة ، والحياة والفكر مظهران كذلك من تلك المظاهر . ولسنا ندعى أنهما أنفسهما مادة وانما هما كما قال «بخنر» فى كتابة «القول الفصل فى المادية» : "ليسا مادة وانما هما ما فعلت المادة" وهذه المادة المركبة من ذرّات وقتية — ليست موزعة على الفضاء بنسبة واحدة بل هى مجتمعة فى بعض المواضع دون الأخرى كتلا كتلا من سديم وسحاب وشموس ونجوم واجرام أخرى سماوية، وكما تختلف المادة من حيث توزعها على الفضاء كذلك تختلف من حيث الحركة وتركب الجزيئات، فبعض أجزاء المادة فى منتهى النشاط وسرعة الحركة وبعضها بطىء خامد ، وقد

تقلبت المادة فى أطوار متعددة جارية على سنن النشوء والارتقاء حتى تشكلت بشكل أرضنا، ذلك الشكل المكثف الجامد المستقل، وكذلك مر الانسان فى أدوار النشوء حتى وصل مخه وهو عضو التفكير الى درجة عالية من الرقى، وعند ذلك نشأت المدنية الحديثة.

أما الموت فقد رأى فيه بخنر ما يأتى: قال "ذهب كثير من الفلاسفة الى أن الموت هو السبب الأساسى الذى حمل على الفلسفة، واذا صح هذا كانت الفلسفة التجربية (القائلة بأن التجربة أساس العلم بالأشياء) فى عهدنا هذا قد حلت أكبر لغز فى الفلسفة، فقد أبانت منطقيا وتجربيا أن لا موت، وأن الموت وهو أكبر سر غامض ليس إلا تغيرا مطردا من حال الى حال، وأن كل شىء فى هذا العالم لا يفنى ولا يزول، من أصغر دويبة الى أكبر جرم سماوى، من حبة رمل أو قطرة ماء الى أعظم موجود فى الخليقة أعنى الانسان وأفكاره. نعم يتغير شكل الموجود، أما الموجود نفسه فدائم لا يلحقه الفناء، فاذا نحن متنا فليس معنى ذلك أننا فُقدنا، وانما فَقَدنا شعورنا الشخصى أو شكلنا العارض الذى لبسته حقيقتنا الأبدية وقتا قصيرا، وسنبقى أبدا فى العالم وفى جنسنا وفى ذريتنا وأعمالنا وأفكارنا، وعلى الجملة فسنبقى فيما قدمناه من عمل — مادى أو نفسى — وما خلفناه من أثر لبنى جنسنا أو للعالم أجمع فى الأيام القصيرة التى عاشتها أشخاصنا" والمادية مع كونها من المذاهب الواحدية إلا أنها

بالضرورة مذهب إلحادى، لأنه ينكر وجود شيء غير المادّة، فلا يعترف بآلهة ولا بأرواح ولا بملائكة ولا بشياطين . قال أحد الكتّاب المادّيين " إن الطبيعة تقوم بشؤونها ولا شيء فوق الطبيعة، وليست الحوادث التى يسميها بعضهم خوارق للعادة ووراء الطبيعة إلا هُرَاءً من القول وخطأ فى الملاحظة منشؤه اختلاط فى العقل وإضلال رجال الدين " .

٤ — وليس مثل هذه الرسالة المؤلفة للجمهور يسمح لنا بذكر تفاصيل عن مذهب المادة ولكنا سنذكر لها تاريخا اجماليا يبين أصلها وماوصلت اليه من رقى . قال «لَنْجْ» فى كتابه «تاريخ المادّية» إنها قديمة قدم الفلسفة وليست أقدم منها ، فقديما حاول الناس أن يدركوا العالم كأنه شيء واحد، وأن يدركوا خطأ الحواس الشائع ويتغلبوا عليه، وترجع المادّية لأوّل عهد الناس بالفكر والنظر، فتراها فى البوذية عند قدماء الهنود، وفى النظم الدينية عند الصينيين، وعند أعظم الأمم القديمة مدنية أعنى المصريين، ونجدها فى شكل منظم عند اليونان الأوّلين فقد كان فلاسفتهم الأقدمون مادّيين، بحثوا فى أصل المادة التى منها تتكوّن الأشياء، وقد رقى مذهب المادّية علماء الجوهر الفرد أعنى لُيُوسِيبُّس وصاحبه دِيمُقْرِيطُس « ٤٢٠ ق م » الذى يعدّ رأس المادّيين، وقد وضعَ ديمقريطس هذا — وهو أحد علماء الطبيعة الأيونيين — نظرية الجوهر الفرد

فقرر أن المادة تتركب من جزيئات صغيرة لانهاية لها « جواهر فردة» تتجمع وتتفرق فتتكون منها الأجسام، وتلك الجزيئات قد منحت الحركة، ولم تستمد حركتها من أية قوة أخرى أو أصل آخر وانما ذلك من طبيعتها .

وجاء بعد أبيقور « ٣٤٠ ق م» فرقى نظرية ديمقريطس وقرر أن المادة قوام العالم، وان النفس والفكر والعقل والشعور أعراض للادة، وربما عدّ من أتباع أبيقور ليوكريتوس كاروس «٩٩ ق م» المؤلف الرومانى الشهير والفيلسوف الشاعر، وقد أوضح آراءه فى كتاب له منظوم لقبه «طبيعة الأشياء» . وهذا الشعر المشهور كما قال « لنج » هو الذى جعل لعقيدة أبيقور قوة فى العصور الحديثة .

وفى القرون الوسطى كان للمعتقدات الدينية والتصديق الأعمى الغلبة والسلطة على عقل الانسان . فخضعت المادّية للنصرانية الاثنينية أعنى القائلة بالروح والمادة، ولم يخل ذلك العصر من أصوات ضعيفة قالت بالمادّية مثل جَسَّنْدى الفرنسى وجُيُورْدَانُو بْرُونُو الايطالى، ولكن لم تلبث أصواتهم أن أخمدت، وأحرق الأخير برومية فى ١٧ فبراير سنة ١٦٠٠ م — أما فى العصور الحديثة فقد انتعشت المادّية فى انجلترا بفضل توماس هوبز (١٥٨٨ — ١٦٧٩)، وقد ذهب الى أن كل مظاهر العالم الحقيقية

نتيجة الحركة ، وأن ليس هناك أرواح غير مجسدة ، وفسر الروح بأنها أجسام طبيعية رقيت حتى لم تستطع حواسنا إدراكها .

وقد انتقل مذهب المادّية من انجلترا الى فرنسا فظهر لَامِتْرِيه (١٧٠٩ — ١٧٥١) و بارون هُلْبَكْ فأوضحا مذهب المادية ، وجاء كابانى أيام الثورة الفرنسية (١٧٥٧ — ١٨٠٨) فأيد مبادئ المادّيين .

وفى ألمانيا كان سيل مذهب المثال الذى وضع نظامه (فختة وشيلنج وهجل) طاغيا على المادّية ، ولكن انتعاش العلوم الطبيعية جدّد للمادّية حياتها ، وجاء مولشت فبحث فى روح العلوم الوضعية (اليقينية) حتى صار فى القرن الماضى ناشر مذهب مادى قوى جديد ، وقرر فى أحد كتبه مبدأ "أن لا قوة بلا مادة ولا مادة بلا قوة" وتبعه «كارل فُجْتْ» الطبيعى الشهير فأظهر فى كتاب[1] له ميله الى المادّية ، وجاء «لدويج بخنر» فتأثر بتعاليم مولشت حتى صار اللسانَ القوى المبين لمذهب المادّيين العصريين ، ولُقب كتابه (القوّة والمادة) «بالكتاب المقدّس للمادية» .

الروحانية

٥ — على العكس من مذهب المادية — القائل بأن المادة أصل كل الأشياء من حياة وفكر وشعور ومظاهر عقلية — مذهب

(١) اسم هذا الكتاب هو (Charcoal-burner's Creed and Science)

الروحانية . وقد أخطأ بعض الناس فهم «الروحانية» فلقبوها «مذهب المِثَال» (Idealism) ، مع أن مذهب المثال هذا انما يقابله «مذهب الواقع» لا «مذهب المادّيين» كما ستعلم ذلك عند الكلام على «نظرية المعرفة» وقد نشأ من عدم تحديد معانى الكلمات أن بعض الناس فهموا خطأ — كذلك — أن المادية تدعو الى الأنانية (الأَثَرَة) والأميال السافلة حتى استعملوا كلمة «المادّيين» للذم و لتعيير . لهذا كان من المستحسن أن نميز بين المادّية والروحانية تمييزا صحيحا ، فمذهب المادية يرى أن أساس كل الأشياء هو المادة ، وهى فى أوّل أمرها تكون مادة لا حراك بها ولا شعور لها ، ثم ترتقى حتى تصل الى مادة حية شاعرة ، وتصدر عنها الأعمال النفسية فى أرقى مظاهرها ، وأما مذهب الروحانية فيرى أن أساس هذا الوجود الذى يعمل وراء هذه المظاهر انما هى الروح التى لا مادة لها .

ولسنا نحاول هنا شرح المذاهب المختلفة للروحانية ، وانما يكفينا أن نقول أن هذا المذهب يرى أن « الفكر» وان كان له ارتباط بالمخ ليس نتيجة المخ ، وبعبارة فلسفية نقول أن العلاقة بين المخ والفكر ليست علاقة علة بمعلول . نعم أن المخ آلة لا بدّ منها للتفكير ولكنها ليست نتيجة للتفكير ، اذ ليس يمكن أن يكون الفكر الانسان الذى يشعر بشخصيته وبحرية ارادته نتيجة لمادة

جامدة لا تحس ولا تشعر مهما كانت حالتها من رقى تركيبها وحسن نظامها .

المادة لا يمكن أن تفكر ولا أن تشعر ، لأن ما يفكر فيه أو يشعر به (وهو المادة) لا يمكن أن يكون هو بعينه المفكر الشاعر فى الوقت نفسه، وفى ذلك يقول شاعر فرنسى ما معناه : "لا أظن أن الفكر وهو ذلك الشعاع الساطع ينبعث من مادة كثيفة مظلمة" .

فماهية الأشياء على هذا المذاهب ليست قوة مادية ، بل روحا تشعر بنفسها وتحس بشخصيتها . ذلك لأنه ليس فى استطاعتنا أن ندرك حقائق الأشياء بحواسنا بل بعقلنا المجرّد ، فكان لا بدّ اذن أن تكون حقيقة الأشياء المدركة بالعقل المجرّد شيئا روحيا مجرّدا .

٦ — وقد ظهر المذهب الروحانى بعد المذهب المادى ، فالعقل البشرى الشغوف بالغيب وبالأسرار وبما لا تعرف له علة وبعبارة أخرى بكل ما لا يصل اليه علمنا لا يقنع طويلا بمذهب المادّية الذى يجرّد الحياة من الأسرار، وهذا هو السر فى أن الانسان من حين لآخر يعدل عن العلم الى الدين بعد ما عدل عن الدين الى العلم .

وقد كانت المادة والروحانية فى جميع أدوار تاريخ الفكر الانسانى ولا تزالان الى اليوم فى حرب عوان، كلٌّ يطلب الغلبة

والسيادة فى عالم الفلسفة . فقد أوضح أفلاطون نظرية الروحانية وقرر أن «المُثُل»[١] لها وجود حقيق وأنها هى النماذج التى تحتذيها الظواهر . وفى العصور الحديثة جاء «رينه ديكارت» فأحيا عقيدة الروحانية ثم جاء ليبنيتز (١٦٤٦ — ١٧١٦) واليه يرجع الفضل فى ضبطها وإحكامها ، ومذهبه أن أساس الموجودات شىء واحد وهو الروح وهى تنقسم الى نقط روحية لا عداد لها وكل نقطة من هذه النقط تسمى « الذَّرَّة الروحية»[٢] وهذه الذرّة يخلقها الله ، وكل جوهر فرد مركب من مجموعة من هذه الذرّات ، وعدم قبول الجواهر الفردة للانقسام ليس إلا فى الظاهر فقط أما فى الواقع فهى قابلة للانقسام ، إذ أنها مركبة من ذرات روحية ، وكل جسم مركب من جواهر فردة ، فهو إذن مركب من ذرّات روحية ، وما يرى للجسم من الامتداد فليس حقيقيا بل هو ناشئ من اجتماع ذرّات روحية بعضها مع بعض .

وحقائق الأشياء ليست المادة بل القوّة أو الذرّات الروحية ، وقد خلق الله تلك الذرات وجعلها مراكز للقوّة ومنحها قوة

(١) أنظر ذيل صفحة . .

(٢) ترجمنا كلمة (Monad) لتى استعملها ليبينتز (بالذرة الروحية) ويريد بها جزيئا صغيرا من الروح لا امتداد له قد منح الحياة ، ويقابله الجوهر لفرد وهو جزىء صغير من الجسم ، وعلى رأى ليبنتز الجوهر الفرد مركب من ذرّات روحية وقد توسعنا فى شرح مذهب ليبنتز لأن ما ذكره المؤلف مركز تركزا يجعله صعب لفهم (المعرب) .

إدراك، وفاوت فيما بينها فى ذلك . فالذرة الروحيــة قوة روحيــة تتجلى فيما تتخذه من الأشكال المتغيرة على الدوام ، وهــذه الذرات « هى مرآة العالم الحية الباقية » وفيها قوة تحاول التحوّل من حالة اللاشعور الى حالة الشــعور ، والشعور هو تيار من الأفكار والاحساسات يتــدفق من حقيقة الذرة الروحيــة ، والمــادة هى مجموعة من الذرات الروحيــة ، وقد تكون تلك الذرات فى حالة اللاشعور فتكون منها المــادة الميتة .

والجسم هو امتداد المــادية (Materiality) ولكن ماحقيقية تلك المــادية؟ قال ليبينتز أنها لقوّة (أو الذرّة) وهى ليست بمــادّة وليست قابلة للامتداد ولا للتجزئة ولا للفناء . وللذرّات الروحيــة تدرّج فى الرقى يصــل الى حدّ الكمال ، وما بلغ منها منتهى الكمال يحكم ما لم يبلغ ، وما لم يبلغ حدّ الكمال يطيع ، والمــادّة الميتــة هى مجموعة ذرّات روحيــة لم تبلغ الكمال وليس معها ذرّات حاكمــة ، وليست الذرّات الروحيــة فى أى حال من أحوالها فاقدة الحياة ، لأن كل ذرة لها جسم وروح ، فالروح ماهية المــادّة والجسم مظهره المحسوس — ولئن كان ليبنيتز قد رأى للمــادة وجودا ما فان « بركلى » قد ذهب الى أبعد منه وتغالى فى الروحانية ، وهو جورج بِرْكلى قسيس « كاوين » (١٦٨٥ — ١٧٥٣ م) الملقب « بمحب الانسانيــة الكبير والفيلسوف الصغير » لقبــه به مؤلف جرمانى

حديث، وربما كان غير عادل فى تلقيبه بذلك — وقد ذهب بركلى الى أن المادة لا وجود لها فى الخارج ، وإنما يخيل الينا أنها موجودة . ولا وجود إلا للروح والعقل ، ولا فرق بين ما نسميه شيئا حقيقيا وبعبارة أخرى (ما ندعى وجوده فى الخارج) وبين آرائنا فى الشيء أو تصوّرنا له ، بل العقل يتصوّر شيئا وفى الوقت عينه ينتج الشيء نفسه، وليس هناك شيء خارج العقل، فترى من هذا أن ليبينتز سلم بوجود الأشياء الخارجية وأما بركلى فأنكر وجود شيء وراء العقل ، فالشمس والقمر والأشجار عند بركلى لا وجود لها اذا لم يوجد عقل يدركها، والعقل عنده (وقد رأى بركلى تعدّد العقول) لا يدرك الأشياء بنفسه ولا بقوّة إرادته، ولكنه يستمد الادراك من الله القادر، فهو سبحانه يطبع الصور فى عقولنا ونحن نسمى تلك الصور عادة أشياء حقيقية .

وقد قال فى كتابه المسمى «السلسلة» الذى ابتدأه بالكلام على منافع «ماء القطران» وختمه بالكلام على «الموجود المطلق» : (ليست الآراء والأفكار خيالات باطلة يتخيلها العقل بل هى الموجودات الحقيقية التى لا تقبل التغير، ولذلك كان وجودها أكثر تحققا من الأشياء الخارجية الزائلة التى تقع عليها حواسنا والتى لا ثبات لها ، ولا يمكن أن تكون موضوعا للعلوم فضلا عن أن يدركها العقل) .

وفي العصور الحديثة جاء «هِرْمَان لُوتْز» فشرح فى كتابه «العالم الصغير» مذهب الروحانيين وكذلك «شُوبِنْهور» الذى ذهب الى أن الارادة هى حقيقة الأشياء و «فخنر» الذى يقول «ان كل شيء فى الوجود حى» يعدّان من الروحانيين .

الواحـــدية والاثنينيـــة

٧ — ذهب بعض الفلاسفة الى أن أساس الأشياء شيء واحد، إما المـادة و إما الروح ، وآخرون الى أن العالم والانسان يتركبان من أصلين قائمين جنبا لجنب على وفاق ، وهما المـادة والروح، فالأوّلون وهم القائلون بوجود أساس واحد اليه ترجع كل الظواهر المختلفة يسمون «الواحديين» ومذهبهم يسمى «الواحدية» قال وُلْف : «لواحديون هم الفلاسفة الذين يقولون بعنصر واحد» وهم إما ماديون اذا رأوا أن المـادة هى الأصل أو روحانيون اذا قالوا بأن الروح هى أساس الأشياء .

وقد رأى «ادورد هارتمان» فى كتابه «فلسفة اللاشاعر» إن الميـل الى «الواحدية» كان سائدا بين النظم الأساسية التى وضعها الأوّلون، دينية كانت أو فلسفية ؛ وأما «الاثنينية» أعنى المذهب القائل بوجود أساسين متعاونين : المـادّة والروح ، فليس مذهبا يسود بين السـذج فحسب، بل قد دافع عنه أيضا فلاسفة عظام

من طلوع بخر المدنية الى اليوم، قال ولف فى تعريفهم «الاثنينيون هم الذين يقولون بوجود عنصرين مادّى وروحى» .

وقد كان انكساغوراس وأرسططاليس والرواقيون اثنينين ، وفى العصور الحديثة جاء «ديكارت» فأيد مذهب الاثنينية ثم عدّله جهلنكس الى مذهب «الاتفاقيين» (Occasionalists) (١) وربما عدّ من «الاثنينيين» أيضا هربارت ولوتز ونخته .

رأى انكساغوراس (٤٥٠ ق م) وجود مبدأ عاقل هو سبب الحركة ، وهو غير العنصر المادى لا يتحرك ولا يشعر ، والعنصر المادى لا شعور له وليس فى قدرته أن يسبب حركة بنفسه ، وانما العنصر الروحى الذى وهب الشعور والتأثير والقوة والعقل هو الذى ينتج الحركة والحياة فى هذا العالم .

ويعدّ الفيلسوفان العظيمان القديمان أفلاطون وتلميذه الشهير أرسطو «اثنينيين» فقد سلم أفلاطون بوجود المبدأ المثالى والمبدأ المادى ، وبعبارة أخرى سلم بوجود عالم الحواس وعالم المثال ، ويرى أن عالم المثال نموذج يحتذيه عالم الحواس . وكذلك أرسطو قال بوجود مبدأين المادة (الهيولى) — وهى الشىء القابل — والصورة وهى التى منحت القوة ، فهو أيضا اثنينى ، ولكن ما ذهب

(١) مذهب الاتفاقية (Occasionalism) مذهب يقول ان العقل والبدن لا يؤثر أحدهما فى الآخر وعند عروض تغير فى أحدهما اتفاقا يغير الله فى الآخر (المعرب) .

اليه من أن الصورة أو المثال والمادة لا ينفصل أحدهما عن الآخر وأن لكل موجود صورة وهيولى، مثالا ومادة، روحا وجسما، يجعل مذهبه أقرب الى «الواحدية» أو على الأقل يجعل الاثنينية مصبوغة بصبغة الواحدية .

وقد ظلت الاثنينية ذات السلطان فى القرون الوسطى لاتفاقها مع التعاليم الدينية . ويعدّ «ديكارت» مؤسس الأثنينية فى العصور الحديثة، وقد فرّق بين ما يقبل الامتداد وهو المادة و بين العقل، وقال انهما عنصران مختلفان يضاد كل منهما الآخر على خط مستقيم وكل منهما يطارد الآخر .

والعقل أو الروح ليس ماديا ولا امتداد له، وهو فاعل حر، أما الجسم أو المادة فلها امتداد ولا روح لها، والانسان مكوّن من الجسم والروح معا، وحركات الجسم تنشأ عن النفس، والنفس مستقلة عن البدن وغير قابلة للفناء . وتلتقى النفس مع البدن فى الغدّة الصنوبرية (القلب) — وجاء سبينوزا فرأى أن الامتداد والفكر انما هما صفتان مختلفتان لعنصر واحد يتكوّن منه كل شىء، الطبيعة أو الله وليسا ناشئين من عنصرين مختلفين، لأن العنصرين المختلفين المتضادين تمام التضاد لا يمكن أن يتحدا، ولهذا يعدّ سبينوزا « واحديا » .

وفى العصور الحديثة يمكن أن يعدّ لوتزونخته اثنينيين .

" والاثنينية العقيدة التي تعتنقها العقول الساذجة وهى أساس الأديان كلها " .

قال هيكل فى رسالته « الواحدية » كل الأديان الغابرة والمذاهب الفلسفية القديمة « اثنينية » تعتقد أن الله والعالم ، الخالق والمخلوق، الروح والمادة ، عنصران منفصل بعضهما عن بعض تمام الانفصال . وانا نجد الاثنينية فى أنقى الأديان ولا سيما فى ديانات التوحيد الثلاث التي جاء بها أنبياء ثلاثة ظهروا شرقى البحر الأبيض وذاع صيتهم وهم موسى وعيسى ومحمد .

قضية العالم الدينية

٨ — مما يتصل بالبحث فى حقيقة الموجود مسألة شغلت عقول الناس منذ أن ابتدأوا يفكرون، وهى : كيف وجد العالم؟ وبعبارة أخرى كيف برز هذا العالم الى الوجود، فقديما تنبه الانسان — حتى الانسان العادى — الى أن هناك وحدة تشترك فيها أشياء العالم المتنوعة أى أن العالم كله كالشيء الواحد يتصل بعضه ببعض ، سواء فى ذلك ما يدرك بالعين وما لا يدرك ، وسرعان ما أدرك أن ظواهر العالم تحصل بنظام دقيق ، وانها خاضعة لقوانين لا تنتهك، فى كل أطوار الانسان من أيام طفولته الى عصر تقدمه يرى أن كل شيء حوله من أرض تقله وسماء تظله تسير على قانون ونظام يستخرجان منه العجب ، فكان فيما

شاهده من نظام فى الطبيعة وترتيب فى الظواهر الطبيعية المتنوعة ما أثر فيه وحمله على أن يسأل عم نشأ نظام هذا العالم وكيف وجد؟ ظن فلاسفة اليونان الأولون أنهم حلوا المسئلة بقولهم بوجود أصل واحد للاشياء مثل المـاء (كما قال طاليس) أو الحق (انكسمندر) أو الهواء (انكسمينيس) أو النـار (هرقليطس) وأن كل موجود على قولهم يستمد وجوده من ذلك الأصل واليه المآب ، ولكن كيف نشأ هذا النظام ووجدت الأشياء من ذلك العَمَاء؟ الى الآن لم يجب عن هذا السؤال . وقد أفحم الطفل الذكى ابيقور أستاذه — وقد كان يقـرّر له أن العالم نشأ من « العماء » — بسؤاله « ومن أين نشأ هـذا العماء ؟ » — أن العنصر أو العناصر التى يظن أنه ينبثق منها كل موجود وينظم هـذا النظام التام لا بد أن يكون لها علة — وقد ذهب بعض الفلاسفة مثـل ديمقريطس وهيرقليطس الى أن وحدة (Unity) العالم ليست إلا مظهرا فقط، والحقيقـة أن هناك عددا لا نهـاية له من جزيئات لا اعداد لهـا (جواهر فردة) تتحرك فى الفراغ لا لغرض ولا مقصد، فتجتمع تارة وتتفرق أخرى وليس تجمعها أو تفرقها يرجع الى سبب علوى، ولكن تبعا للحركة الوقتية التى هى جزء من حقيقتها . وليس عندهم ما يسمى بعلة العلل، وانما تتحرك الجواهر الفردة فى فضاء لا نهاية له وفى زمن لا نهاية له فيتجمع منها ما يمكن أن يتجمع ، ويحصـل ذلك ويتكرر، ويسمى هذا المذهب مذهب الجوهر الفرد .

٩ — مثل هذا الشرح لا يقنع الانسان طويلا فان عادته التى لا تفتأ تسأل عن العلة الأخيرة لهذه الظواهر ، وما فيه من مشاعر غامضة قوية أهمها شعوره بضرورة اعتماده على قوة ، وحاجته الى واق يقيه ، حماته على الاعتقاد بوجود قوة علوية لا تدركها الأبصار ، قوة شاعرة بأن لها إرادة « ولها بعض الشبه البعيد بعقل الانسان » وهذه القوة هى سبب نظام العالم ، هى سر كل شيء . إياها يستعين الانسان على ما يطلب من حماية وسعادة . وذلك العماء[1] الذى ذكرناه لا بد أن يكون له مدبر يضبط أموره وهذا المدبر هو ما يعلل به نظام العالم ، وهو مفتاح يحل به أعظم الألغاز المعقدة ويشرح لنا الغرض من هذا العالم ، قال مكس مولر « أن النظر فى الظواهر الطبيعية قاد الانسان الى ادراك خالق وراء هذه الظواهر » .

تلك القوة العلوية هى الله . ومن قبل أن طلعت شمس المدنية والناس يقرون بوجوده ، وكل جنس وجيل تقريبا سماه

(١) ترجمنا كلمة (Chaos) بالعماء ، ونعنى بها المادة التى على حالة اختلال وعدم انتظام وذلك قبل أن تخلق والخلق على هذا القول اخراج المادة من حالة التشويش وعدم الانتظام الى حالة الانتظام . واستعملنا كلمة العماء بهذا المعنى أخذا من قوله عليه لصلاة ولسلام وقد سئل — أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض قال « فى عماء تحته هواء وفوقه هواء» (المعرب) .

باسم خاص مثـل يهوه وجوبتر والسـيد المـالك وما لا يحـدّ وما لا يعرف والارادة المطلقة ومسخر العالم الخ .

— وان السماء لدليل على عظمته — .

وكما قال «تِنِيسُن» .

كلا ، ليس الشمس والقمر والنجوم والسهل والحَزْن إلا منظرا من مناظر رب العالمين .

والاعتقاد بالله متأصل فى نفوس الناس ، ينبع حينا بعد آخر حتى من أجدب النفوس وأحلها ، وكانت فكرة الاعتقاد بالله فكرة ساذجة فى أوّل أمرها ، درجت بين ما كان عند الانسان الأوّل من أَثَرة وحب نفس ثم ترقت بمرور الأزمان وكانت مجالا لنظريات مختلفة وآراء متباينة ، نشأت فكرة سخيفة فى عصر الهمجية اعتنقها المتوحشون الذين صاغوا معبودهم بأيديهم وترقت الى أن وصلت الى شكل اعتنقه أمثال هجل ورنان ومكس مولر وغيرهم .

والمذهب القائل بوجود خالق لهـذا العالم مدبر له لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار يسمى بمذهب المؤلهة (القائلين بآله) وهذا المذهب يرى وجود إله أو آلهة علويين فوق الطبيعة وفوق العالم، وهـذا الاعتقاد أساس كل المعتقدات الدينية من عقيـدة المتبربرين الذين لم يأخذوا من المدنية بحظ وافر الى العقيـدة الأثيريّة التى وضعها شلرما كر .

ومذهب المؤلهة إما أن يقول بآلهين أو آلهة عدّة ، وهذا هو أساس ديانات كثيرة شرقية قديمة وحديثة — ويسمى مذهب الشِّرْك ، وإما أن يقول بإله واحد ويسمى مذهب التوحيد ، وهذا أساس الديانات الثلاث العظمى اليهودية والنصرانية والاسلام ، ويقول مذهب المؤلهة انه لما كان العقل وحده لا يستطيع أن يدرك الاعتقاد بالله حق الإدراك ، جاء الوحى لتفهيم الناس هذه الحقيقة — ومذهب المؤلهة مذهب مُشَبِّه (يشبه الله بالانسان) فينسب الى الله فكرا ورأيا وصفات وأميالا وصورة كما للانسان ذلك ، إلا أنه يقر بأن ماله من ذلك أكمل مما للانسان .

وهناك مذهب يخالف مذهب المؤلهة فيقول أيضا بوجود إله علوى قوى عالم ، إلا أنه لا يقول بوحى ويسمى هذا المذهب مذهب العقليين ، وهذا المذهب يؤيد القول بإله ويرد على الملحدين المنكرين له ، ولكنه ينكر أن الله هو الفعال على الدوام فى حكم العالم وفى تدبيره وفى إسعاد الناس وإشقائهم ، ويرى أن العقل وحده لا بمعونة وحى وخوارق للعادة يستطيع أن يصل الى معرفة الله أو الى علة العلل الذى نظم العماء ، وأن هذه القوة (الله) ليست فى حاجة الى نظام دينى خاص ، ولا الى شكل من أشكال الصلاة ، ولا الى شعائر عبادة ، وتغالى أصحاب هذا المذهب فى آرائهم وتعمقوا فى خيالاتهم ، حتى ذهبوا الى أن كل العقائد والأديان

ستفقد خواصها المميزة لها بعد أمد مديد، وأن النصرانية واليهودية والإسلام ومذاهب الإشراك ولتوحيد ليست إلا أمواجا قصيرة الأمد سائرة الى الزوال فى بحر الألوهية المحيط ، وليست البوذية والزرادشتية والمانوية أشياء يعتد بها فى الأفق الفسيح للمثل الانسانية العليا، والعقليون ينكرون أيضا القول بأن الله خلق العالم من لا شيء، ويرون أن الله انما نظم حالة المادة المشوشة وأخرجها من حالة العماء، أما المادة نفسها فقديمة وكثيرا ما يسمى العقليون لهذا «ملحدين» وقد سماهم بوشوت « الملحدين المتنكرين » .

١٠ — ويتفق مذهب المؤلهة ومذهب العقليين فى القول بإله علوى فوق العالم يحكم العالم من عل، كأنه منفصل عنه ويذهب المؤلهون الى أبعد من ذلك، فيعتقدون الله مستويا على العرش، بيده الخير والشر يثيب الناس ويعاقبهم جزاء بما كانوا يعملون ، تهمه أعمال الانسان، وتسره التضحية وتسكن سورة غضبه الصلاة، ويرى أيضا أن الله تعالى أعلى من أن تفهم عقولنا أعماله — وتضاد هذه لعقائد القائلة بأن لله وجودا مستقلا وأنه أعلى من مخلوقاته — عقيدة أخرى ترى مذهب الحلول أى أن الله فى هذا العالم وأنه كل شيء فى كل شيء، وأن الله والقوة الداخلية الفاعلة فى هذا العالم مترادفان . وأنه لمن الصعب تحديد مذهب الحلول حتى قال جوتيه : « لم أر الى الآن من يفهم ما تدل عليه كلمة

الحلول فهما صحيحا » وتدل الكلمة على أن هذا المذهب يرى أن الله هو كل شيء وأن كل شيء هو الله . وليس الله والعالم منفصلا بعضهما عن بعض بل شيئا واحدا من عنصر واحد، ولا يرى أن الله قائم بذاته منفصل عن العالم كما يرى مذهب المؤلهة — المشبهين — ومذهب العقليين بل ينزه الله عن كل أوصاف البشر، وينكر أن يكون الله مشخصا قائما بذاته ، ويقول لا فرق بين الله والعالم ، وأن الله هو الخالق المدبر والعلة الفاعلة على الدوام، وهو روحُ فكرتها العالم، والعالم عندهم مظهر الله والطبيعة شِعَاره ، ذلك لأنه لو كان هناك شيء غير الله لكان محدودا ولما وجد فى كل مكان ولما كان قادرا على كل شيء — وعندهم أن الله حالّ فى كل ذرّة من ذرّات العالم، وفى كل حبة من رمال الصحراء ، وفى كل نبتة من نبات الحقول، وفى كل ورقة من أوراق الأشجار يلاعبها الهواء، وفى كل دابة تدب على الغبراء، قال شِلِي يخاطب الله :

« إن أصغر ورقة من أوراق الأشجار التى يلاعبها النسيم »
« ليست إلا بُضْعة منك (جزءا من أجزائك) كلا ولا أحقر دودة »
« تسكن القبور وتسمن من لحوم الموتى أقل مشاركة لك »
« فى حياتك السرمدية » .

وقال : ” إن هذه الروح التى توجد فى كل مكان بها يحيى كل موجود، وهى هو “ .

وقد حدّد هنريك هَيْني فى كتابه الممتع « الدين والفلسفة فى جرمانيا» مذهب الحلول الذى قال عنه أنه (دين ألمانيا المختفى فى نفوسهم) فقال ان الله هو العالم وقد تجلى الله فى النبات بنوع حياة — حياة مغناطيسية لا تنبهية — وتجلى فى الحيوان بحياة تشبه حياة النائم، فهو يحس نوع احساس بأن له وجودا، ثم تجلى أعظم تجل فى الانسان فهو يشعر ويفكر، ظهر الله فى الانسان بمظهر الشاعر بنفسه، ولست أعنى فردا من أفراد الانسان وانما أعنى النوع الانسانى كله، فيحق لنا أن تقول «ان الله قد تجسد فى ذلك النوع الإنسانى» .

١١ — واذا نحن حاولنا أن نذكر تاريخا كاملا لقضية العالم الدينية فمعنى ذلك أننا نريد ذكر تاريخ الفلسفة كلها وليس فى وسعنا ذلك ولذلك سأقتصر على ذكر أسماء قليلة من هؤلاء الذين قالوا بالمذاهب الأربعة التى تقدّم ذكرها وأعنى بها : مذهب الجوهر الفرد، ومذهب المؤلهة، ومذهب العقليين، ومذهب الحلول .

أسس مذهب الجوهر الفرد «لُيُوسِيبُس» وتلميذه ديمقريطس وجاء أنكساغوراس فرأى أنه لابد من قوة أو عقل مدبر هو السبب فى نظام العالم ، ومن أجل ذلك قال بوجود عنصر قد منح القوة والحياة والعقل والعمل والحرية ، وهو منبع نظام العالم وحياته وحركته ، وسمى هذه القوة نوس (Nous) «العقل» وهذا العقل

هو الروح التى أخرجت من العماء نظاما، وهو المحرّك الأوّل للمادة، ولكنه ليس الخالق لها، فانها أزلية — ويخالف هذا المذهب مذهب المؤلهة فانه يرى أن الله خلق المادة من العدم . وهذه العقيدة هى أساس كل العقائد الدينية، وقد اتبع مذهب المؤلهة « أفلاطون » و « أرسطو » و « ليبنتز » و « كانت » واعتقدوا أن الله هو العلة الأولى لهذا العالم — ومذهب العقليين يقول بوجود إله يشرف على الكائنات ويحكم العالم ولكن لا عن إرادة حرة، بل يحكمها متبعا قوانين لاتقبل التغير، وقد ظهر هذا المذهب أوّلا فى انجلترا فى القرن الثامن عشر، وكان « تولاندوم . تندال » وشافتسبرى أشهر المدافعين عنه، أما مذهب الحلول فقد كان يدعو اليه ريك ڤيدا (Rig Veda) « كتاب الهنود المقدّس» وقدماء فلاسفة اليونان الإيليون وكان القديس بولس نفسه يدعو الى الحلول لما قال : «فى الله نحيا وفيه نتحرّك وفيه نكون» وكان «زينوفانيس» يعلم أن ليس إلا إله واحد وأنه هو والعالم شىء واحد .

ونحو آخر القرن السادس عشر قام «جيوردانو برونو » ولم يعبأ بتهديدات محكمة التفتيش ورفع صوته بتأييد الحلول والطعن على مذهب المؤلهة الذى يشبِّه الله بالانسان، وعنده أن الله الذى لا يحدّه حدّ والعالم شىء واحد ، وان هؤلاء الذين يتخيلون أن الله موجود بجانب الموجودات الأخرى إنما يجعلونه محدودا . وان ليس الله

خالق العالم ولا المحرّك الأوّل له بل هو روح العالم — وجاء «سبينوزا» الأمستردامى (١٦٣٢ — ١٦٧٧) ونظّم مذهب الحلول، ولذلك يعدّ أبا الحلول الحديث، وأصبحت كلمتا الأسبينوزية ومذهب الحلول مترادفتين، ويمكن تلخيص مذهب سبينوزا فيما يأتى : ان فى العالم جوهرا واحدا وهو الله، وهو مطلق لا يحدّ وكل الجواهر الأخرى المحدودة منبعثة منه ومظروفة فيه، وليس لها إلا وجود زائل سائر الى الفناء، ولله صفتان يُظهر بهما لنا نفسه : الامتداد والفكر، فبالامتداد المنوّع تتكوّن الأجسام، وبالفكر المتنوّع تتكوّن العقول وهاتان الصفتان ثوبان لله نسجتهما «المكوكات الدائمة الحركة فى نول الزمن العاصف» .

ولما أعلن سبينوزا حكيم «أمستردام» الأوحد عقيدته هذه ثار عليه أنصار الدين واتهموه بالالحاد وما كان أبعده عن الألحاد، فقد كان مملوءا بحب الله حبا جاءه عبر الطبيعة، فمن كأس الطبيعة الطافحة قد شرب الألوهية حتى ثمل، وحتى أصبح لا يرى أمامه إلا الله، وبالرغم مما وجه الى سبينوزا من الضربات القاسية كان له تأثير عظيم فى أكبر العقول فى أوروبا «فشلر» و«جوتيه» و«لسنج» و«هردر» و«شلرماكر» و«هنـ.» و«شلى» كانوا حلوليين وان شئت فقل سبينوزيين .

وقد أوضح جوتيه عقيدته فى الحلول فى قوله :

"كلا . ليس يرضى الله أن يهيمن على العالم من فوق فحسب ، بل يود أن يكون فى باطن الكائنات ، وأن يرى الطبيعة متجلية فيه ويرى نفسه متجليا فى الطبيعة ، فما يخلقه الله والله وحياته وقوته شيء واحد"[1] .

---

(١) واذا نحن قارنا بين مذاهب المسلمين وما حكاه عن هذه المذاهب وجدنا المسلمين يغلب عليهم القول بمذهب المؤلهة فهم يقولون بإله ويصفونه بأوصاف الانسان من سمع وبصر واستواء على العرش ونحو ذلك وان كانوا يقولون بالفرق بين اتصاف الله بهذه الصفات واتصاف الانسان بها وللمعتزلة تعاليم تجعل بينهم وبين العقليين بعض الشبه فقد قالوا : يجب على الله فعل الأصلح وتجنب الفساد . ونفوا تشبيه الله بالانسان وقالوا أن الانسان يخلق أفعال نفسه ولكنهم لم يتفقوا مع العقليين فى نفى الوحى . وقد ظهر مذهب الحلول بين المسلمين وقالت به طائفة من طوائف الصوفية ، من أوائلهم أبو يزيد البسطامى (المتوفى سنة ٢٦١ هـ) وأشهر منه فى القول بالحلول الحلاج تلميذ الجنيد قتل سنة ٣٠٩ هـ . وله كلام وشعر يشبه شعر شلى وجوتيه وكلام سينوزا فى الحلول فمن قوله : «ما فى الجبة إلا الله» و «أنا الحق» ومن شعره :

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا فى خلقه ظاهرا ... فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب

ومن أشهر شعره :

انا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فاذا أبصرتنى أبصرته ... واذا أبصرته أبصرتنا

وللصوفية كلام ومذاهب فى الحلول أو وحدة الوجود يطول شرحها (المعرب) .

الفصل الثالث

مسائل علم الأخلاق

١ — من بين المسائل الأخلاقية التى اجتهد فلاسفة كل عصر فى حلها وخصصوا أفكارهم للبحث فيها المسائل الآتية :

(١) أصل شعورنا الأخلاقى .

(٢) الباعث الباطنى الذى يحملنا على اطاعة ما يمليه علينا شعورنا الأخلاقى، والذى يشكل سلوكنا بشكل خاص .

(٣) المقاصد أو الأغراض أو النتيجة الأخيرة التى نحاول أن نصل اليها بأعمالنا الأخلاقية .

(٤) المقياس الذى به نقيس أعمالنا فنحكم عليها بأنها خير أو شر .

٢ — المسألة الأولى أصل الشعور الأخلاقى، أعنى كيف نعرف أن عملا من الأعمال أخلاقى وآخر غير أخلاقى؟ كيف يدرك وجدان الانسان الخير والشر أو الحق والباطل و يميز بينهما؟ ألسنا نرى العمل الذى يعده بعض الناس خيرا وحقا وأخلاقيا فى عصر من العصور أو عند بعض الأمم قد يعدّ هو بنفسه فى عصر آخر

أو عند أمة أخرى شرا وباطلا وغير أخلاقى، فما أصل ذلك ؟
انقسم الفلاسفة فى الاجابة عن هذا الى قسمين : ففريق يرى أن فى كل انسان قوة غريزية يميز بها بين الحق والباطل والخير والشر والأخلاقى وغير الأخلاقى، وقد تختلف هذه القوة اختلافا قليلا باختلاف العصور والبيئات «الأوساط» ولكنها متأصلة فى كل انسان ، فكلٌّ يحصل عنده نوع من الالهام يعرفه قيمة الأشياء خيرها وشرها ، وهذا الالهام يحصل للانسان بمجرّد النظر، ولهذا نشعر — ولو لم نعلم — بأن شيئا خير وشيئا شر ويسمى هذا المذهب «مذهب اللَّقَانة»[1] وكان «كَارْلِيلْ» من أتباع هذا المذهب لقوله "إن الشعور بالواجب" — وهو معنى أبدى — جزء من طبيعتنا ونقطة المركز فى نفوسنا الفانية . ومثل ذلك مثل الأبدية الخالدة فانها معنى أبدى مظاهره الليل والنهار والنعيم والشقاء والموت والحياة، وهى أشياء فانية" . وهذه القوّة ليست نتيجة بيئة ولا زمان ولا تربية بل هى غريزية لا مكتسبة، وهى جزء من طبيعتنا منحناها لنميز بها الخير من الشر كما منحنا العين لنبصر بها والأذن لنسمع بها . وكان

(١) جاء فى لسان العرب «غلام لقن سريع الفهم ولقن الشىء والكلام فهمه والاسم اللقانة» فآثرنا أخذها ووضعها لكلمة (Intiution) كما فعل الفرنج فان هذه الكلمة عندهم كان معناها فى الأصل النظر الى الشىء ثم أخذوها واستعملوها فى المعنى الجديد وهو «القوة الباطنة التى تدرك حقيقة الشىء بمجرّد النظر اليه من غير أعمال عقل فى نتائجه» فلنصطلح على تسمية هذه القوّة (اللقانة) لا سيما انى بعد البحث الطويل لم أجد العرب المتقدّمين استعملوا كلمة فى هذا المعنى (المعرب) .

«بطلر» يعدّ الوجدان جزءا أساسيا من طبيعتنا و يعرفه بأنه «قوة بها نستحسن العمل أونستقبحه» فهو إذن من اتباع هذ المذهب. وممن ذهب هذا المذهب من الجرمان «نخته» و «كانت» وهو أكبرهم.

وفريق آخر من الفلاسفة خالف الأولين ورأى أن معرفتنا بالخير والشر مثل معرفتنا بأى شيء آخر تعتمد على لتجربة ، وتنمو بتقدّم الزمان وترقى الفكر، ويقول أصحابه أن الشعور الأخلاقى ليس غريزيا فى الانسان بل هو نتيجة لتجربة، وهى التى علمته الحكم على بعض الأعمال بأنه خير أو حق وعلى بعضها بأنه شر أو باطل، و يسمى هذا المذهب مذهب التجربة ، وأشهر من ذلك تسميته باسم النشوء والارتقاء (Evolution) وقد أسس هذا المذهب على نظرية النشوء التى وضعها «داروين» و «والاس»، القائلة بأن الأجسام الحية العالية «نشأت» وترقت من الأجسام الحية السافلة، وأن عقل الانسان «نشأ» وترقى من أبسط نوع من الادراك ، فأخذ فلاسفة كثيرون نظرية دارون هذه فى النشوء وطبقوا عليها قانون الأخلاق وعلم الأخلاق ، وقد كان «كارنرى» و «مل» و «بين» وخاصة «هربرت سبنسر» من معلمى هذا المذهب ، قال أهل هذا المذهب : كما أن الجسم العضوى نتيجة الوراثة ونتيجة عملية انتخاب و رفض دامت مدّة عصور كذلك عقل الانسان تدرّج فى الرقى من أحط الأحوال، وليست القوة الأخلاقية التى

نعرف بها الخير والشر إلا التجربة ، فمنها نستخرج الحكم على الاشياء بأنها خير أو شر . واستمرار الأمة فى التجارب يفضى الى تعديل الآراء فى الأخلاق من وقت لآخر ، ويرى هذا المذهب أن ليس عند الانسان قوة أخلاقية خاصة ، ولسنا نحتاج للاهتداء فى أعمالنا إلا الى إعمال عقولنا ، وان أحكامنا على الأعمال لتصدر بملاحظة الغاية التى نقصدها من أعمالنا والباعث عليها لا بملاحظة ملكة فينا أو قوة أخلاقية فى نفوسنا ، وليس الشعور الأخلاقى إلا نتيجة من خير نتائج « النشوء والارتقاء » وقد تدرج فى الرقى من تخيل المتوحشين الى آراء المتمدنين المهذبين ، ولا يزال الى الآن يرقى بترقى الأمم .

٣ — المسألة الثانية من المسائل التى وجه اليها فلاسفة الأخلاق نظرهم وذهبوا فى الإجابة عنها مذاهب ، مسألة الغاية أو الغرض من أعمال الانسان الأخلاقية — إن الأعمال الاختيارية يعملها الانسان وأمام نظره غاية من أجلها يعمل العمل . وذلك أن الانسان لما كان حيوانا ناطقا (مفكرا) قد منح قوة فكر ، بها يستطيع أن يدرك العلاقة بين الأعمال وما تؤدى اليه من النتائج ، لم يكن مُلْجَأً الى العمل بمجرّد الدوافع (كما هو الشأن فى الحيوان) وانما هو منقاد ومتأثر برغبة فى غاية يريد تحصيلها ، فالأعمال الأخلاقية أو السلوك الأخلاقى اذاً وسيلة يحاول بها الانسان أن

يصل الى غاية، فما هذه الغاية الأخيرة والخير النهائى الذى يشتاق الانسان للوصول اليه ويجد فى البحث عنه؟ ذهب فلاسفة اليونان الأقدمون كسقراط وأفلاطون الى أن كل انسان بطبيعته وبالضرورة انما يبحث وراء خيره، فالخير الأخير وغاية الغايات هو السعادة أو اللذة وتسمى هذه النظرية نظرية السعادة، وقد نشر هذه النظرية فلاسفة اليونان وظهرت فى تاريخ البحث الأخلاقى لابسة أثوابا مختلفة. ونظرية السعادة هذه تضاد نظرية اللقانة وتقول أن الانسان انما صار أخلاقيا بعقله وتجاربه وبحثه وراء سعادة يريد تحصيلها، وقد حللها وشرحها فى العصور الحديثة جمع من فلاسفة الانجليز، أشهرهم بالى وجرمى بنتام وميل ويعرف المذهب الآن «بمذهب المنفعة»[1] وان كان مؤسسا على نظرية السعادة. قال «چون ستورت ميل» فى رسالته فى مذهب المنفعة "ان جميع القائلين بمذهب المنفعة من أبيقور الى بنتام لم يريدوا بالمنفعة شيئا يخالف اللذة بل أرادوا اللذة نفسها والخلو من الألم،

(١) يظهر من كلام المؤلف أنه يريد أن يستعمل كلمة مذهب المنفعة (Utilitarianism) مرادفا لمذهب السعادة (Hedonism) مع أن مذهب المنفعة إنما يفهم منه المذهب لقائل بأن غاية الانسان سعادة نوع الانسانى أو كل حساس وان مقياس الخير والشر هو سعادة لناس كلهم لا عامل وحده فهو إذن أخص من مذهب سعادة لأن مذهب السعادة يشمل هذا ويشمل المذهب لقائل بأن مقياس الخير ولشر هو سعادة لعامل نفسه فانظر (المعرب) .

وأنهم لم يقولوا ان الشيء النافع يضاد اللذيذ وما هو حلية وزينة بل قالوا انه يشملهما ويشمل غيرهما" وعرف مذهب المنفعة بقوله "ان المذهب الذى يتخذ أساس الأخلاق المنفعة أو أكبر سعادة مذهب يرى أن الأعمال خير بقدر ما تدعو الى الزيادة فى السعادة وشر بقدر ما تدعو الى الزيادة فى ضدها ، والمراد بالسعادة اللذة والخلو من الألم وبضدها الألم والخلو من اللذة" من هذا نستنتج أن هذه النظرية القائلة « بأن الأعمال ليست لها قيمة ذاتية وإنما قيمتها بقدر ما تحصل من السعادة » تسمى نظرية المنفعة .

وخالف فى هذا القول بعض الفلاسفة فقالوا أن الأعمال الأخلاقية ، ليست وسائل (كما يقول مذهب لسعادة) بل هى أنفسها غايات ، وبسيرنا على مقتضى قانون الأخلاق نؤدى الغرض الذى من أجله خلقنا ، وبسلوكنا الأخلاقى نرقى قوانا التى منحناها لنحصل بها العلم ونعرف ما هو حق وما هو خير . وبسلوكنا الأخلاقى أيضا نستعمل قوانا الأخلاقية ونرقيها ، وبترقيتنا لقوانا العقلية والأخلاقية نصل الى كمالنا وهو مقصدنا فى الحياة ، وهذا الرأى هو أساس الأخلاقية المسيحية .

ولكن على مذهب السعادة ، سعادة من نقصد؟ قال قوم إننا نقصد تحصيل سعادتنا الشخصية ، وقال آخرون نقصد تحصيل

السعادة لغيرنا أو السعادة لأكبر عدد، ولخص «جرمى بنتام» رأيه في ذلك في قوله «أكبر سعادة لأكبر عدد» .

٤ — ويتصل بمسألة الغاية والمقصد البحث فى الباعث النفسى على العمل أو منبع السلوك الأخلاقى، وبيان ذلك أن الانسان لم يمنح العقل والفكر فقط بل منح أيضا الشعور . وللشعور سلطان على طريقته فى التفكير، وبواسطة ذلك يكون للشعور أيضا سلطان على أعماله ، فكثيرا ما نرى الانسان يتجه — اتجاها ينطبق على العقل — نحو سلوك أخلاقى ثم يتغلب عليه طبعه أعنى دوافع ليست دائما متفقة مع لعقل ، بل كثيرا ما تحيد بالانسان عن الصواب فى الحكم، فالشعور بماله من التأثير الشديد فى عزمنا الاختيارى يجعلنا نميل الى عمل أكثر مما نميل الى آخر، فحالة العقل الباطنة مع تأثيرها فى العامل تعتمد — الى درجة كبيرة — على لطبع والمزاج والبيئة — وأيضا قد يكون الدافع فينا أقوى من العقل فيتغلب على عقلنا فى لحظة ما من لحظات الحياة ويقودنا الى أعمال نراها فيما بعد على خلاف ما نراها وقت الدافع ، ويجعلنا نتردد فى الاتيان بعمل ونسرع الى الاتيان بآخر، فظهر من هذا أن غرضنا الاختيارى وسلوكنا الأخلاقى وان كانا وسيلة لتحصيل غاية إلا أنهما كذلك يعتمدان على الدافع الطبيعى وعلى باعث يستميلنا للسعى وراء هذه الغاية، وليست الغاية متفقة مع الباعث

فحسب، بل هى الى درجة كبيرة تعتمد عليه أيضا . ولسنا نعرف بعقولنا — فحسب — أنه ينبغى أن تسير فى طريق خاص دون غيره، بل نشعر بذلك أيضا . وليس نظرنا الى المصلحة أو المنفعة وحده هو الذى يوجهنا وجهة خاصة ويشكل أعمالنا بشكل خاص، بل العاطفة والشعور أيضا يعملان ذلك .

واستكشاف الدافع العام للناس جميعا، والمحرك العام للسلوك الانسانى، والعاطفة الأخلاقية أو الشعور الأخلاقى الذى هو بمعزل عن العقل، والذى يؤثر فى عزمنا، والذى هو متأصل فى أعماق أعمالنا — مسألة من المسائل الهامة التى اجتهد فلاسفة الأخلاق فى حلها واختلفوا فى الاجابة عنها، فذهب قوم مثل «هوبز» الى أن الانسان إنما يعنى بسعادته هو وأن كل انسان إنما يحارب من أجل نفسه، وأن أساس أعماله الأثرة « الآنانية » وقاعدة سلوكه رغبته فى نفع نفسه، وليس حبه الظاهرى لجاره إلا ضربا خفيا من ضروب حب نفسه . نعم أنه قد يفعل خيرا لغيره ولكن ليس إلا لأن فعله يسبب له لذة أو يوصله الى غرض له، والسبب النهائى فى إطاعة الانسان للقوانين الأخلاقية «من صدق وكرم ونحوهما» ليس إلا أنانيته، وكل ما يسمى إيثارا أو عملا ليس فيه مصلحة شخصية تجده بعد الفحص الدقيق نتيجة رغبة فى منفعة شخصية يراد تحصيلها عاجلا أو آجلا، وذهب آخرون مثل «هيوم» و«آدم سمث»

الى أن فى الانسان أيضا عاطفة حب للناس، وأن فى نفس الانسان عاطفة تدعوه للاتيان بأعمال يريد بها أن يزيد فى سعادة بنى جنسه، وأن سعادة الناس وبؤسهم لا حبّ النفس ومراعاة لذتنا نحن هو المتأصل فى طبيعتنا وهو الأساس العام لسلوكنا الأخلاقى، أعنى أنه هو الأساس الذى ينبنى عليه المدح والذم .
وتسمى هذه النظرية نظرية الايثار، وهى ضدّ نظرية الأثرة، ومن أتباعها آدم سمث وهيوم، وهى تقول أن فى طبيعتنا شيئا نقوّمه أكثر من تقويمنا لسعادتنا الشخصية، وذلك الشىء هو ما يحس به العامل عملا أخلاقيا من مشاركته لمن ينالهم بره فى السرور والعواطف والسعادة، وذلك الشىء أيضا هو العنصر الأخير الذى نحلل اليه عواطفنا وانفعالاتنا — ان نفوسنا لتهتز عطفا على الناس ورحمة بالمنكوبين وغضبا على الخاطئين، وانا لنحس برغبة شديدة تنبعث من نفوسنا تحملنا على العمل لخير الناس وسعادتهم، وهذا الشعور بأنواعه التى ذكرنا يكوّن قوّة كبيرة صادرة من طبيعتنا ومؤثرة فى سلوكنا الأخلاقى تارة يحملنا على بعض الأعمال وطورا يمنعنا من ارتكاب بعض آخر — والى المذهب الأوّل أعنى مذهب الأثرة ذهب فلاسفة اليونان الأقدمون والفلاسفة الذين كانوا فى عصر الثورة الفرنسية، وذهب هذا المذهب فى العصور الحديثة «ماكس سترنر» و «نيتشه» والى المذهب الثانى أعنى مذهب الايثار

ذهب «كانت» و «فخته» و «شوبنهور»، وذهب «آدم سمث» و«چون ستورت ميل» الى أكثر من ذلك فطلبا من العامل الأخلاقى تضحية النفس "ولكن لا تبذل هذه التضحية ما لم تكن سببا فى سعادة الآخرين".

قال «ميل» : "ان من نقص الدنيا واختلال نظامها أن أحسن طريق يمكن الانسان أن يسلكه فى مساعدة غيره على تحصيل السعادة هو تضحية سعادته تضحية تامة، ولكن مادامت الدنيا على هذا الحال من النقص فانى أقر أن الاستعداد لتلك التضحية أكبر فضيلة يمكن أن يتصف بها الانسان" : "ان أصحاب مذهب المنفعة يقولون أن النوع الانسانى يمكنه أن يضحى أكبر خيراته من أجل خير الآخرين، ولكن لا يقولون بأن هذه التضحية فى نفسها خير، بل يقولون ان كل تضحية لا تزيد فعلا فى مقدار الخير فى العالم ولا تدعو الى ذلك لا يعتدّ بها وتذهب هباء، وليس عندهم تعفف محمود إلا ما كان موصلا الى خير الآخرين، ويشترط أن يزيد فى مقدار الخير العام أكثر مما ينقص منه".

٥ — وهناك مسألة أخرى شغلت عقول فلاسفة الأخلاق وهى مسألة المقياس الأخلاقى وما له من سلطان، وبعبارة أخرى مسألة أساس الأخلاق وعلاقته بإرادة الإنسان أى القانون الأخلاقى

وما له من قوة ملزمة تحمل الارادة على العمل بموجبه[1]. قال «ميل» فى رسالته «مذهب المنفعة» : " إننى أشعر بأننى ملزم بألا أسرق ولا أقتل وبألا أخون ولا أَخْدَعَ . ولكن لِمَ ألزم بالعمل للسعادة العامة ؟ واذا كانت سعادتى الشخصية فى شىء فلماذا لا أفضله على غيره ؟ " وأيضا أن الواجبات على النـاس والأحكام التى تصدر على الأعمال لتختلف باختلاف الأشخاص وأخلاقهم ، وأن ما نحمّــل الأشخاص من المسئولية ليختلف باختـلاف الأحوال ، أليس من الجـائز إذن أن نكون فى أحكامنا مخطئـين ، أو ليس من المحتمل أن نكون فى عملنا مبطلين ونحن نظن انا محقون؟ فأين نجد مقياس الأخلاق وما الذى له من سلطان ؟ على هذا السؤال أجيب بجوابين فقال قوم ان المقياس الأخلاقى فى أنفسـنا ، وانه لصوت فينا يخبرنا كيف نميز بين الحق والباطل ، وان القانون

(١) موضـوع هـذه المسألة المقياس الأخلاقى (Standard) أى المقياس الذى نقيس به الخير والشر وسلطانه (Sanction) أو جزاؤه أى ما للقياس من قوة ملزمة ولتوضيح ذلك أقول انى اذا قلت مثلا أن أساس الخير والشر هو سعادة الناس كلهم كان هذا هو المقياس ، فالعمل يكون خيرا بقدر ما يسبب سعادة النـاس وشرا بقـدر ما يسبب من شقائهـم ولكن ما الذى يحمل النـاس على العمل بهذا المقياس وما الذى له من القوة حتى يطيعه الناس فلا يعملون إلا ما يسبب السـعادة ؟ هـذا بحث فى سلطان المقياس فاذا قلت مثلا أنه يحملهم على اطاعتـه خوف لنـاس والله والرغبة فى مثوبتهما أو يحملنى على اطاعته دافع نفسى هو الوجدان كان ذلك هو سلطان القانون فسيتكلم فى هذه المسألة عن المقياس وسلطانه (المعرب) .

الأخلاقى مستمد من نفوسنا، تشرعه قوة فينا، وهو مقيم فى أعماق نفوسنا يساعدنا على إزاحة حجب المظاهر حتى نصل الى إدراك الواجب ، وهذا القانون الأخلاقى (المقياس) يهدينا فى أعمالنا وله سلطان قوى على كل مصادر السلطان الأخرى، وتسمى هذه النظرية نظرية « القانون الذاتى » (Autonomous) لقولها بوجود القانون الأخلاقى فى طبيعة الانسان — وبعض هؤلاء الفلاسفة اعتبر هذا الصوت الباطنى هو صوت العقل ويسمون بالعقليين . وقد كان قدماء الفلاسفة والفلاسفة الذين فى عصر الثورة الفرنسية الكبرى عقليين بهذا المعنى . وهم يجعلون للعقل القول الفصل فى الحكم على الأعمال، وله سلطان قوى على سلوك الانسان، وفى طليعة القائلين بهذه النظرية « كانت » وقال قوم يجب أن يفسح العقل مجالا للشعور وان السلطان الذى يحمل على إطاعة القانون الأخلاقى إنما هو فى أنفسنا كما قال «هيوم» و «شوبنهور» و «آدم سمث» وغيرهم ولكن ليس مركزه العقل بل الشعور، فسلطان القانون الأخلاقى شعور باطنى مغروس فى نفوسنا "وهذا الشعور ألم مختلف الشدّة يعقب مخالفة الواجب ويحمل — فى الأحوال الهائمة عند من صلحت تربيتهم — على النفور من المخالفة حتى يخيل لهم أنها مستحيلة[1] " .

(١) من رسالة «ميل» فى ذهب المنفعة .

وعلى الضدّ من نظرية « القانون الذاتى » نظرية « القانون الخارجى » (Heteronomous) وهى تضع المقياس الأخلاقى وسلطانه فى يد سلطة خارجيـة فهى تقول ان الخوف من الله رب العالمين ، والخوف من المخلوقين والرغبة فى تحصيل الثواب من الله ، والاستحسان من الناس هى أساس الواجبات الأخلاقية ، وهى السلطان الحامل على إطاعة لقانون الأخلاقى ، وأن القانون الأخلاقى والقواعد التى تبين السلوك الأخلاقى (لمقياس) تستمد من قوة خارجية لا من قوة فينا كارادة الله أو الملك أو قانون المجتمع .

ومما يتصل أشدّ اتصال بهذه المسائل الأخلاقية مسألة حرّية الارادة ، ولتوضيح ذلك نقول : هل إرادتنا حرة فنحن نطيع القانون الأخلاقى ونخضع له اختيارا ؟ وهل إطاعتنا للقانون الأخلاقى تشعر بأن لنا اختيارا ، وان العامل حر فى اختيار العمل وحر فى تشكيل عمله بما يشاء ، وحر فى استعمال القانون الأخلاقى حسب ما يحيط به من الظروف ؟ أو إنا مضطرون بمقتضى الطبيعة أن نعمل فى الحالة المعينة عملا خاصا بحيث لا نستطيع أن نعمل غيره ، وإن إرادتنا معلولة بعلل فاذا حصلت العلل حصل المعلول ، وان عزمنا على إتيان عمل وان كنا نشعر بأننا أحرار فيه ليس إلا نتيجة لازمة لأسباب تسبقه وتستلزمه ؟

انقسم الفلاسفة فى الاجابة عن هذا الى قسمين تحاجا ولا يزالان يتحاجان الى اليوم ، فمذهب يرى ان الارادة حرة حرية مطلقة لا يضطرها أى سبب ولا أية علة ويعرف هذا المذهب بمذهب الاختيار، ومذهب يرى ان ارادة العامل واختياره نتيجة لازمة لأسباب سابقة ويسمى مذهب الجبر ، ومسألة الجبر والاختيار من المسائل الهامة التى حاول حلها كل من الدين والفلسفة .

الفصل الرابع

نظرية المعرفة

١ — كثيرا ما تعرف الفلسفة بأنها نظرية « الكون والمعرفة » ، فعلم ما بعد الطبيعة يبحث فى حقيقة الكون وأصله ، أما ما يبحث فى المعرفة نفسها (العلم بالشىء) أعنى حقيقتها ومنبعها وحدودها التى تقف عندها فيكوّن فرعا آخر من الفلسفة يسمى « نظرية المعرفة » أو « إِبستمُولوچيا » وقد وَجّه فلاسفة اليونان الأوّلون نظرهم للبحث فى حقائق الأشياء وطبائعها وهذا التفلسف والنظر الذى يفوق أنظار السذج والعامّة وآراءهم تدرّج بالمفكرين الذين يبحثون عن الحقائق — الى البحث فى مسألة أخرى وهى

لمــاذا يختلف نظرى الى الأشياء عن أنظار غيرى من الناس؟ ولمــاذا تختلف نظرياتى المبنية على البحث عن الأفكار الشائعة بين العامة؟ أنى أعرف أن الناس على باطل وانى على حق، وأن هناك عالمــا من الأشــياء خارجا عنى يعرفه عقلى . فكيف تدخل المعرفة بهذه الأشــياء فى عقلى فتثير أفكارا تولد عالمــا من الأشياء فى داخله ؟ كيف حصلت هذه المعرفة، ولِمَ يفكر الناس على خلاف ما أفكر؟ أين منبع الحقيقــة التى حصلتها؟ أين أصل المعرفة وحدودها التى تقف عندها ؟ وما حقيقتها وطبيعتها ؟ هــذه الأبحاث أدّت الى الشك فى صحة المعرفة وفى لوثوق بهــا ، وجاش فى النفس هــذا السؤال : هل يمكن بحال أن نعرف الحقيقة وأن نجد مقياسا صحيحا عاما نقيس به الأشياء لنعرف صحيحها من باطلها ؟ قد كان العقل البشرى فى أوّل الأمر يميل الى العمل والسير فى الحياة من غير أن يسأل نفسه سؤالا كهذا حتى اذا وقع فى الخطأ ورأى آراء تناقض آراءه اعتراه الشــك ولم يعــد يثق بمــا يرى . وبعد أن كان الفكر يشتغل بالأشــياء الخارجية توجه للبحث فى نفســه هو باحثا عن نصيبه من الصحة فسأل : ما المعرفة وما علاقتها بالحقيقــة ؟ هل المعرفة ممكنة وهل يستطيع العقل البشرى الوصول اليها واذا كان كذلك فكيف الوصول؟ هــذه أسئلة وأبحاث توجه اليهــا العقل الانسانى الشيِّق الى أن يعرف، بعد أن بحث أبحاثه فيما بعد الطبيعة .

قال « بولسن » : " ان الفلسفة ابتدأت فى جميع أماكنها بالبحث فيما بعد الطبيعة فكان البحث فى شكل العالم وتكوّنه وأصله وفى طبيعة الكون وماهية الروح وعلاقتها بالبدن هو موضوع الفلسفة الأولى، وبعد أن استغرقت هذه الأبحاث زمنا طويلا اتجه الفكر للبحث فى المعرفة وإمكانها، ورأى لعقل البشرى ضرورة النظر فيما اذا كان من الممكن بحال حل هذه المسائل . ومن هذا النظر نتجت «نظرية المعرفة» من هذا يفهم أن البحث فى صحة معرفة الأشياء وحدودها وعلاقتها بحقائق الأشياء هو موضوع ما يسمى نظرية المعرفة أو ابستمولوجيا .

فيمكننا أن نجمل الغرض من نظرية المعرفة ومسائلها فى أسئلة ثلاثة هامة وهى :

(١) ما المعرفة ؟ وهو سؤال عن نفس المعرفة .

(٢) بم أحصِّل المعرفة ؟ وهو سؤال عن أصل المعرفة ومنبعها .

(٣) هل يمكن تحصيل المعرفة؟ وهو سؤال عن صحة المعرفة وحدودها .

٢ — وقد أجاب العلماء عن هذه الأسئلة إجابات وردت ضمنا فى تاريخ الفكر، وكانت مختلفة تبعا للاختلاف فى المذاهب الفلسفية، فذهب قوم من الفلاسفة الى أن معرفة الأشياء نسخة

طبق الأصـل لحقائق أشـياء، وصورة دقيقـة فى عقولنا لمـا فى الخارج، وأن الأشـياء فى الحقيقة والواقع مطابقـة لمظاهرها التى ندركها بواسطة القوى المدركة، وأن العالم الخارجى فى الحقيقة كما ندركه وهو مستقل فى الوجود عن إدراكنا، وأن مظاهر الأشـياء وحقائقها متطابقة وإدراكنا للأشياء كما هى فى الواقع هو المعرفة، وهذه العقيدة أعنى أن الأشياء المحققة لها وجود فى الخارج مستقل عما يماثلها فى الذهن تسمى «مذهب الواقع»، وهذا المذهب يرى أن ما ندركه بالحواس سواء كان إدراكا يقينيا أو ظنيا وما نعرفه بالتأمل بالفكر[1] وهمـا اللذان بهما تحصل المعرفة بالأشـياء — نتيجة شىء حقيقى موجود فى الخارج مستقل عن ذهننا، فالمعرفة على هـذا المذهب هى إدراك الأشياء كما هى فى الواقع بواسـطة آلات البدن والنفس، فالشىء أسود أو أحمر لأن به صفة جعلته أسود أو أحمـر، فاذا انعكس على أعيننا أدركنا سواده أو حمرته، وهذه الصفة موجودة محققة سواء انعكس الشىء على عين الانسان أو لا — ويقابل هـذا المذهب مذهب «الظواهر» ومذهب المثال، وهو يرى أن «إدراك الأشياء» و «الأشـياء فى أنفسها» وبعبارة أخرى «ما فى الفكر» وما «فى الخارج» مختلف اختـلافا كبيرا، وعلى هـذا المذهب ليست المعرفة إدراك الأشـياء كما هى

(١) يعنى بالتأمل (Reflecton) ملاحظة العقل لأعمال نفسه .

فى الواقع، ولا هى كما يقول الواقعيون نسخة طبق الأصل، ولا صورة دقيقة للأشياء نفسها، بل المعرفة إدراك الأشياء حسب ما يظهر لنا، إذ لا يمكن أن يكون بين المعرفة التى هى عملية نفسية والأشياء الخارجية تشابه ، وليس العالم الذى حولنا إلا نتيجة أنتجها عقلنا ، وكل ما نعرف من العالم والأشياء الخارجية سواء كان طريق المعرفة حواسنا أو تأملنا الفكرى ليس إلا خيالا يولده العقل، و بينا يرى الواقعى "ان الادراك بواسطة الحواس يحدث عندنا يقينا بها وان فى ذلك الادراك ضمانة لحقائق الوجود ، اذا بالمثالى يرى أن حقائق الوجود الخارجى ليست إلا قابليتها لأن تدرك " .

٣ — أما السؤال الثانى وأعنى به السؤال عن أصل المعرفة ومنبعها فقد أجيب عنه بجوابين .

أما الحاسّيون أو التجريبيون فقالوا ان كل معرفة إنما سببها الادراك بالحواس، وبعبارة أخرى ان منبع معرفتنا هو الادراك الأول، أعنى الادراك بالحواس باطنة أو ظاهرة ، فباجتماع هذه الادراكات وتركيبها وإتقانها تحصل التجارب ، وبجمع التجارب وترقيتها تحصل المعرفة ، فمنبع المعرفة إذن عمل الحواس أى «الادراك بالحس» و«التجربة» وهما يقابلان عندأصحاب النظرية

الأخرى الآتى شرحها «التفكير» و «الفكر»(١) . وعلى هذا المذهب تكون كل معرفة ولو كانت فكرا عميقا أو «لقانة» ترجع الى الادراك الحسى، فمذهب الحاسـيين أو التجربيين إذن هو المذهب القائل بأن التجربة هى المنبع الوحيد للمعرفة أو على الأقل أساسها، وان كل معرفة تنبع من التجربة، والتجربة نوعان : فاما أن تكون مستقاة من الحواس الظاهرة و إما من الباطنة فادراك الأشـياء الخارجية يسمى إحساسا، و إدراك الأشياء الباطنية يسمى تأملا، والادراك بنوعيه باب ينفذ منه ضوء المعرفة «الى حجرة الفهم المظلمة» .

قال « لُوكْ » فى رسالتــه «العقل البشرى » : "لنفرض أن العقل صحيفة بيضاء خالية من أية كتابة وأى معنى ، فكيف

(١) قال بروتا غو رس رأس السوفسطائيـــة ان الادراك بالحس هو المصـــدر الوحيـــد للمعرفة ومع ذلك فهذا الادراك إنما يعرفنا ظاهر الشىء فقط لا حقيقة الشىء نفسه ومن أجل هذا كان كل رأى ينشأ عن الادراك بالحس صحيحا عند الحس وحده بل صحيحا فى لحظة واحدة وهى اللحظة لتى حصل فيها الادراك أما الصحة العامة المطلقة فلا وجود لها — واذا كانت معرفة الانسان لا منبع لهــا غير الادراك بالحس وكان شأن الادراك ما ذكرنا كانت معرفة الانسان لا يوثق بصحتها — وقد سلم أفلاطون بهذا الرأى وهو أن الادراك بالحس إنمــا يكون معرفة وقتية وعنده أن هذا الادراك إنمــا يعرفنا ظواهر الشىء لاحقيقته (ولكن لم يقصر الادراك على الحس) و بينا بروتا غوارس يقول ان معرفة الشىء لا يمكن أن تنال اذا بأفلاطون فى كتابيه ثيتيونوس وتيمايس يقول بامكان المعرفة وقال ان ما يقربــ الى المعرفة هو الرأى لصحيح الذى يستطيع الانسان أن يبرهن عليـــه و يعنى أفلاطون بالمعرفة معرفة حقائق الأشياء فهو فى قوله هذا من العقليين (المؤلف) .

استعدّت لأن تتلقى ما يلقى اليها ومن أين لها ذلك المستودع العظيم الذى نقشه عليها خيال الانسان الواسع نقشا متنوعا الى أنواع لا تحدّ ومن أين لها كل مواد الفهم والمعرفة؟ عن كل هذه الأسئلة أجيب بكلمة واحدة وهى « من التجربة » فمنها استقينا كل ما عرفنا ومنها نستمد المعرفة . فملاحظتنا سواء كانت ملاحظة محسوسات خارجية أو ملاحظة عمليات العقل الباطنية، وبعبارة أخرى سواء كانت إدراكا بالحس الخارجى أو تأملا فكريا هى التى تزوّد عقلنا بكل أدوات التفكير ومن هذين الينبوعين تنبع كل أفكارنا ... ... وكل أفكار يمكن أن تكون ... .. وهما — على ما أعرف — المَنْفَذان اللذان ينفذ منهما الضوء الى تلك الحجرة المظلمة ، إذ يظهر لى أن العقل كحجرة صغيرة حرمت من كل النوافذ إلا فتحات صغيرة تدخل منها صور المحسوسات الخارجية أو الآراء المتعلقة بها" وقال : "لهذا كان أوّل مقدرة للعقل هو أن يكون صالحا للانفعال إما بواسطة الحواس التى تدرك الأشياء الخارجية وإما بالعمليات التى يعملها العقل عند التأمل فى هذه الأشياء، وهذه أوّل خطوة يخطوها الانسان لاستكشاف أى شيء ، والأساس الذى تنبنى عليه كل الآراء التى يحصلها فى هذا العالم، فكل الأفكار الراقية الجليلة التى تفوق السحاب رفعة وتعلو علو السماء إنما أصلها الحواس . يسبح العقل مسافات بعيدة ويفكر

ويتأمل تأملات رفيعة، وهو فى كل هذا لا يخرج قيدَ ذرة عمـا أمدّته به الحواس أو التأمل (الفصل الأوّل من الجزء الثانى)" .
من هـذا يعـلم أن الحاسـيين أو التجريبين يرون أن ما يمكن أن يجرب هو وحده الذى يمكن أن يعرف، وان أداة المعرفة الصحيحة هو الادراك بالحس ومدركاتنا عند التجريبين ناشئة من قوّة الادراك بالحس، أما قوّة الفكر فقابلة فى الغالب لمـا يرد عليها لافاعلة (أنظر فلكنبرج ص ٣١٨) .

٤ — ويعارض نظرية الحاسيين أو لتجريبين نظرية الذهنيين أو العقليين ، وهؤلاء يقولون أن التجربة التى تحصـل بواسـطة الحواس مضـلة موهمة ، وان الحواس لخداعة كذابة مخطئـة، فاذا كانت كل معارفنا بواسطة الادراك بالحس فالمعرفة مستحيلة ، ذلك لأن الادراك والتجربة إنمـا يخبراننا بمـا يتعلق بحـالة واحدة من أحوال الشيء ، ولا يسـتطيع أن يتناولا كل الأحوال، فلو كان الأمر مقصورا عليهما لمـا عرفنا حقيقة عامة، واذ كان من الثابت أن المعـرفة ممكنة وجب أن نقـول أن بعض المدركات التى تكوّن المعرفة ليس أساسها الحواس . ولأن تُعَـد الحو س عَدُوّا للمعرفة الحقـة أقرب من أن تعدّ خادمة لهـا . وان ما يظهر للعقل بواسطة الحواس انمـا هو مظهر الأشياء الخارجى الخداع لا ماهيتها الحقة التى لاتحس (انظر فلكنبرج ص ٢١٩) .

فالمعرفة اذًا انما تحصل بالفكر، و بالتفكير وحده يمكننا أن (نشرف على مملكة الظواهر المتغيرة) و بينا التجربي يرى أن كل الحواس والتأمل منبع المعرفة اذا بالعقلى يرى أن التفهم والتعقل هو المنبع الوحيد للمعرفة — ويستدل العقليون بأن العلم والفلسفة يميلان الى العموم والضرورة (١) كما يظهر ذلك فى العلوم الرياضية التى هى أهم مظهر للمعرفة العلمية. والعلم والفلسفة لا يمكن أن يحصلا بالتجربة لأنها محدودة، وانما يحصلان من طريق العقل الذى به الادراك، وهو وحده المدرك، ثم كيف يفهم ما لا يحس كالله والأبدية ومجموع العالم اذا نحن اعتبرنا التجربة لا العقل منبعا لمعرفتنا وآرائنا ؟ الحق أنه بواسطة التفكير المحض وحده يمكننا فهم حقائق الأشياء، وقد غلا بعضهم فى معارضة التجربيين "فذهب الى أنه لا يصل شىء الى النفس من الخارج ولا يمكن للنفس أن تبتكر شيئا اذا لم يكن من الأصل فيها" .

٥ — انما شغل العقليون والتجربيون أنفسهم بمسألة المعرفة، فذهب الأولون الى أنها تحصل بواسطة العقل المحض وبه وحده يحصل العلم بالاشياء، أما بواسطة الادراك بالحس فمستحيل

---

(١) الظاهر أنه يريد بالعموم الشمول فاذا قال العلم أن زاوية المثلث تساوى قائمتين كان ذلك عاما فى كل مكان وزمان ويريد بالضرورة خضوع ما يحدث فى العالم لأسباب تنتجه . فالعلم لا يقول بحدوث شىء اعتباطا بل انما يحدث بناء على قوانين استوجبت حدوثه .

أن يحصـل ذلك ، والتجربيون ينكرون تحصـيل المعرفة بالعقل المحض، ولكن لم يتعرّض أحد المذهبين لمسألة امكان المعـرفة ، فكلاهما وثق بالعقل البشرى ثقـة تامة واعتقد بقدرته على معرفة الاشياء، ولكن لمـا كان هذا الوثوق بالعقل وبقدرته على تحصيل الحقائق قـد تزلزل بنظرية التجربيين كانت النتيجة أن ضـعفت الثقة بالعقل أوّلا وتلا ذلك تعريضه للنقد والامتحان .

وظهرت هذه المسألة : هل تمكن المعرفة؟ واذا أمكنت فالى أى نقطة تمتد وما حدودها ؟ والعقليون والتجربيون لم يبحثا فى هذه المسألة ، بل آمنا بأن لنـا قدرة على معرفة الأشياء : إما بواسطة الادراك بالحس وإما بواسطة التفكير، وبأن الأشياء فى الحقيقة هى كما ندركها ، ويسمى هذان المذهبان مذهب اليقين نظرا لتيقنهما بامكان المعرفة .

ويعارض مذهب اليقين مذهبان آخران يكوّنان نظامين من نظم الفلسـفة ، ويتعلقان بمسألة امكان المعـرفة وحدودها : أحدهما مذهب الشك والآخر مذهب النقد، فمذهب الشك يشك فحسب، وينكر امكان المعرفة وقدرة الانسان عليهـا، ويمسك عن ابداء أى رأى، ويقابله مذهب النقد فهو بدلا من أن ينكر ببساطة ويشك من غير تعليل ينقد ويبحث فى كيف نشأت المعرفة كما يبحث فى حدودها .

رأى النقاد «أصحاب مذهب النقد» أنفسهم أمام مسألتين لا تحل ثانيتهما إلا بحل أولاهما . فقبل أن يبحثوا فى منبع المعرفة وأصلها قالوا يجب أن نبحث فى حدود المعرفة ويقام البرهان على امكانها، وبعد أن تعرف الشروط التى بها تحصل المعرفة يمكن للانسان أن يعرف ما يمكن إدراكه بهذه الشروط (فلكنبرج ٣٢٢).

٦ — وانا نذكر كلمة مجملة فى تاريخ نشوء نظرية المعرفة (ابستمولوجيا) ففى عصر الفلسفة القديمة كان السوفسطائيون أول من أثار البحث فى المعرفة، ومهدوا السبيل للعقليين والتجربيين ، وفيها بحث الايليون وأفلاطون وأرسطو، وفيها بحث الرواقيون والشكاك والأبيقوريون ، وفى العصور الحديثة كانت هذه المسألة فى مقدّمة المسائل عند البريطانيين وغيرهم من الممالك الأوروبية فى القرن السابع عشر، فكان للعقليين نفوذ كبير فى ممالك أوروبا غير بريطانيا بما وضعه ديكارت (١٦٥٠) وسبينوزا (١٦٧٧) وليبنتز (١٧١٦) وولف (١٧٥٤) . أما الباحثون البريطانيون بيكون (١٦٢٦) وهوبز (١٦٧٩) ولا سيما چون لوك (١٦٣٢ ١٧٠٤) فكانوا تجربيين، وقد أدّت أبحاث لوك التجربية الى مذهب الشك الذى وضعه هيوم (١٧٧٦) فى انجلترا كما أن بحث هيوم كان باعثا قويا «لكانت» على أن يرقى مذهبه النقدى وكما قيل «ينبهه من نومه اليقينى» .

الخاتمة

هذا باختصار تام هو موضوع الفلسفة ومجالها بجميع فروعها، وأنه لمن الصعب أن نحيط بموضوع كهذا كتبت فيه مجلدات — فى رسالة صغيرة كهذه ألفت لسواد الناس، ومما يزيد الأمر صعوبة أن يكون موضوع البحث مما اختلفت فيه الآراء اختلافا كبيرا كما هو الشأن فى الفلسفة، حتى لقد وصل الجدال وامتد الخلاف الى تعريف الموضوع وماهيته، وانى لآمل أن أكون قد أوضحت للقارئ شيئين:

(١) ان الفلسفة تحاول أن تجيب عن هذه الأسئلة الباقية أبدا وهى : كيف؟ وما؟ ولم؟ ما حقيقة الشىء الموجود؟ كيف ظهر الى الوجود؟ ماذا نعرف؟ ماذا يجب أن نعمل؟ لم يجب أن نعمل بهذه الطريقة دون غيرها ؟

(٢) ان الفلسفة ليست شيئا بعيدا عن الحياة الحقيقية بل أنها شىء مرتبط بمسائل الحياة اليومية، مدرستها العالم وموضوعها ظواهر الكون، وكتبها العقل الانسانى، هى الفكر موجها الى العالم الذى حولنا والى كل مظاهره — والى حياة العالم الفسيح الذى كلٌ منا جزء منه، والى نفسنا التى بين جنبينا، وبالاجمال الى العالم الكبير والعالم الصغير (الانسان) كل هذا شىء معروض على الوضيع والرفيع ، على العالم والجاهل ، فكلّ انسان باعتبارٍ ما فى بعض لحظات حياته فيلسوف، وستدوم الفلسفة ما دام الفكر البشرى .

نعم ليست مسائل الفلسفة فى كل العصور سواء ولا يمكن أن يكون ذلك كذلك . فان الفكر الانسانى فى تقدم ورقى مشاهد فى كل مكان . فكم من مسائل اختفت وحل محلها مسائل جديدة . وكما أن الكهل يبتسم عند ما يلقى بنظرة على آرائه أيام صباه فيرى أن أهم شىء كان يراه فى أمسه أصبح تافها فى يومه ، كذلك النوع البشرى فى سيره قُدُما يغير مزاعمه وآراءه ومثله العليا وينبذ عقائد ويعتقد أخرى ولا يكاد العقل البشرى يجد حلا لمعضلة قديمة حتى تظهر أخرى جديدة ، ويكاد فى نفس الوقت الذى وفق فيه الى حل ظاهرة غامضة وايضاحها تظهر مشكلة جديدة فى أفق الفكر البشرى ، وان حب المعرفة والشوق اليها والرغبة فى كشف الحجاب عن الطبيعة والنفوذ الى أسرارها لمعرفة الحقيقة ستظل خالدة فى أعماق صدر الانسان ، نعم أن الثورات العظيمة التى تقوم فى مملكة الفكر ستحل الألغاز القديمة وتقلب الأفكار العميقة المتأصلة رأسا على عقب ، وتبدد العقائد القديمة والمثل العليا العتيقة ولكن لا بدّ أن يكون للانسان جديد يقوم مقامها . وان حل الألغاز المتشعبة التى لا تفتأ تظهر والعمل على ايجاد مُثُل عليا جديدة ووضع الحقيقة الجديدة محل القديمة واعتناقها وبناء الانسان أعماله وسلوكه عليها كان ولا يزال وسيكون غرض الفلسفة .

تم الكتاب

معجم لأشهر الرجال الذين ورد ذكرهم في الكتاب

آدم سميث A. Smith — فيلسوف انجليزى .(١٧٢٣ — ١٧٩٠) كان أستاذ المنطق والأخلاق فى جامعة غلاسكو و يعد واضع علم الاقتصاد السياسى . وجه الأنظار الى البحث فى حرية التجارة والعمل ورأس المال بحثا علميا .

أبيلرد Abelard (١٠٧٩—١١٤٢) — عالم فرنسى يعدّ من كبار المفكرين فى القرن الثانى عشر — اشتهر بمخالفته لتعاليم الكنيسة فى عصره و بقوله بما يقرب من عقيدة الموحدين و بما أوقع عليه من العقاب من رجال الدين وفتح مدرسة للحكمة فى « ميلون » بالقرب من باريس .

أبيقور Epecurus (٣٤١ — ٢٧٠ ق) — فيلسوف يونانى أسس مدرسة فى أثينا وسط حديقة وكان يعلم فيها الفلسفة، لم يصل الينا كثير من تآليفه وأغلب ما علمنا عنه انما هو من نقل أتباعه وكان يرى أن لاخير إلا اللذة ولا شر إلا الألم، وأن الفضيلة إنما تقصد لما فيها من اللذة والرذيلة إنما تجتنب لما فيها من الألم، وليست السعادة عنده إلا نيل اللذائذ ولم يقصر أبيقور قوله على اللذات الجسمية كما فهم بعض الناس من مذهبه بل اعترف باللذة

العقلية وفضلها على غيرها وقد تبعه فى العصور الحديثة جسندى (أنظر جسندى) .

أرسطبس Aristippus — فيلسوف ولد فى قورينا Cyrene (مدينة من مدن برقة فى شمال أفريقية) نبغ نحو سنة ٣٨٠ ق م ورحل الى أثينا وتتلمذ لسقراط وهو أول من قرر المذهب الأخلاقى القائل بأن تحصيل اللذة والخلو من الألم هما الغاية الوحيدة فى الحياة وأن الفضائل انما كانت فضائل لما فيها من اللذة ويسمى مذهبه المذهب القورينائى نسبة الى قورينا مسقط رأس رئيس المذهب .

أرسطو أو أرسطاليس Aristotle (٣٨٤—٣٢٢ ق م) — أعظم فلاسفة اليونان الأقدمين رحل الى أثينا ولازم أفلاطون يأخذ عنه العلم حتى مات أفلاطون وأسس بأثينا مذهبا يسمى أتباعه بالمشائين لأنه كان يعلم فى مماش مظللة ويلقب بالمعلم الأول لأنه أول من جمع علم المنطق ورتبه واخترع فيه وقد دعاه فيلبس لتعليم ابنه الاسكندر المقدونى فعلمه نحو ثلاث سنوات وله كتب كثيرة فى فروع العلم المختلفة .

أُلبيانْ Ulpian (١٧٠—٢٢٨م) — مشرّع رومانى ألف كتبا كثيرة فى التشريع .

أنكساغوراس Anaxagoras — فيلسوف ايونى ، مات سنة ٤٢٨ ق م اتهم سنة ٤٢٤ ق م بالالحاد وحكم عليه بالاعدام

ثم استبدل بالنفى من أثينا بعد أن أسس بها مدرسة وتبنى فلسفته على أصلين : الأوّل أنه لا يوجد شىء من العدم، والثانى أنه لا بد للعالم من علة مدبرة ولم تصل الينا فلسفته واضحة بل كل ما وصلنا قطع متفرقة ناقصة .

أَنَكْسِيمِنِسْ Anaximenes — فيلسوف يونانى مشكوك فى تاريخ حياته إلا أنه يظن أنه عاش من ٥٦٠ — ٥٠٠ ق ولم يبق شىء مما كتب ، ويعرف عنه أنه كان يقول بأن الهواء مبدأ للأشياء كلها وان العالم موجود بحركتى التكاثف والتمدّد أى انقباض الهواء وانبساطه ، ورجع العناصر الأخرى اليه فقال ان النار هواء متمدّد غاية التمدّد والماء هواء متكاثف بعض التكاثف فان زاد التكاثف كان التراب والحجارة وسائر الجوامد .

أُوغُسْطِينُوسْ — هو القديس أوريليوس أوغسطينوس Augustine (٣٥٤ — ٤٣٠ م)، ولد فى أفريقيا فى بلدة قريبة من قرطاجنة وتعلم فى مدارس ما دوره وقرطاجنة وطالع شيئا من الفلسفة وصار أسقفا لكنيسة هبو فاجتهد فى توحيد الكنائس النصرانية وله تآليف كثيرة جمع فيها بين الفلسفة والدين .

أُوقْلِيدِسْ Euclid — فيلسوف يونانى رياضى قيل أنه ولد فى الاسكندرية وتوطن أغريقية قبل الميلاد بثلثمائة سنة ثم جاء الى الاسكندرية وفتح مدرسة لتعليم الرياضيات صارت أشهر

مدرسة فى مصر وأشهر كتبه كتابه المعروف بأصول اقليدس ، منه قسم فى الهندسة لا يزال يعتمد عليه فى مدارس انجلترا واشتغل به العرب وشرحوه وممن شرحه نصير الدين الطوسى وله تآليف أخرى عديدة .

پالِى Paley — باحث انجليزى (١٧٤٣ — ١٨٠٥ م) كتب فى الأخلاق والسياسة .

بِخْنَرْ Buechner — فيلسوف مادى وطبيب ألمانى (١٨٢٤ — ١٨٩٩ م) وهو من أتباع دارون وقد ذكر مذهبه الدكتور شميل فى كتابه النشوء والارتقاء (من صفحة ٢٨٨ — ٢٩٦ ومن ٣٢٢ — ٣٤٢) فارجع اليه .

بُرْك Borke — هو سياسى وخطيب وكاتب انجليزى (١٧٢٩ — ١٧٩٧ م) كتب فى الفلسفة والسياسة ولم يرض عن الثورة الفرنسية وانتقدها نقدا شديدا .

بِرْكْلِى Berkely — هو چورچ بركلى (١٦٨٥ — ١٧٥٣م) أسقف وفيلسوف انجليزى بحث فى نظرية المعرفة وذهب الى أن لا وجود للمادة وليس إلا العقل والروح وكان له قدرة على التعبير عن الآراء الفلسفية بعبارة واضحة ظريفة .

بْرُودِيكُوسْ Prodicus — فيلسوف يونانى سوفسطائى كان فى زمن سقراط .

بَطْلَرْ Butler — يوسف بطلر فيلسوف انجليزى (١٦٩٢ — ١٧٥٢ م) اشتهر ببحثه فى علم الأخلاق وما وراء المادة وكان يرى أن فى طبيعة الانسان دافعين رفيعين حب النفس والوجدان وهما الرئيسان على كل ما عداهما من الدوافع وتوسع فى نظرية الوجدان وكان يرى أن كل انسان يجد فى أعماق نفسه أساس الخير ويحس بأنه ملزم باتباعه .

بِنتام Bentham — هو جرمى بنتام عالم انجليزى (١٧٤٨ — ١٨٣٢ م) اشتهر ببحثه فى الأخلاق والقانون وهو من أكبر دعاة مذهب المنفعة وربما عدّ مؤسسه وهو القائل بأن «مقياس الخير والشر أكبر لذة لأكبر عدد» وألف فى أصول القوانين كتابه المشهور «أصول القوانين» الذى عربه المرحوم فتحى باشا زغلول .

بولس : القدّيس بولس St. Paul — أحد الحواريين قتل فى رومة سنة ٦٦ م .

بيكُون Bacon — هو فرنسيس بيكون فيلسوف انجليزى (١٥٦١ — ١٦٢٦م) تعلم فى كمبردج ثم سافر إلى فرنسا فجال فيها . وفى سنة ١٥٨٨ عينته الملكة اليصابات وكيلا للدعاوى فى ديوانها ثم عين «مدّعيا عموميا» ثم جعل لوردا الخ . وفى سنة ١٦٢١ اتهم بأخذ الرشوة وحوكم وحكم عليه بغرامة وبالعزل من منصبه وبالحبس ثم عفا عنه الملك .

لم يقنع بيكون بفلسفة أرسطو ولم يرض عن نظام الفلسفة في القرون الوسطى فقد كان الفلاسفة يضيعون جهدهم فى مناقشات قليلة الفائدة و يتلاعبون بالألفاظ و يقنعون بالحقائق المجردة التى لا يبنى عليها عمل ولكن بيكون وجه همته وفلسفته نحو المسائل العملية وما يسعد الناس و بهذا كان له الفضل على الفلسفة — ألح بيكون فى طلب الملاحظة ودقة النظر والتجربة وأن النتائج يجب أن يتوصل اليها من الاستقراء والعناية بالمعلومات وترتيبها وقال بضرورة تطبيق هذا المبدأ على علم الأخلاق والسياسة و يعدّ بيكون مؤسس الفلسفة التجريبية .

بيرُون Byron — هو اللورد بيرون شاعر انجليزى مشهور (١٧٨٨ — ١٨٢٤ م) .

بِيْن Pain — عالم انجليزى (١٨١٨ — ١٩٠٣ م) كاتب فى النفس والأخلاق والمنطق .

تِنْدَال Tindal (١٦٥٦ — ١٧٣٣م) — كاتب انجليزى كان من العقليين يقول بالإله وينكر الوحى .

تِينِيسُنْ Tennyson (١٨٠٩ — ١٨٩٢ م) — شاعر انجليزى شهير .

تُولَانْد Toland (١٦٧٠ — ١٧٢٢ م) — كان على رأى تندال فيما ذكرنا من الوحى .

تِينْ Tane (١٨٢٨ ١٨٩٣م) — مؤرخ فرنسى كتب فى آداب اللغة الانجليزية وبحث فى علم الجمال .

جَانِيه : بول جانيه Paul Janet (١٨٢٣ ١٨٩٩) فيلسوف فرنسى كان مثاليا من أتباع هجل .

جسِّنْدى Gassenndi (١٥٩٢ ١٦٥٥م) فيلسوف فرنسى فتح مدرسة فى فرنسا أحيا فيها تعاليم أبيقور وتخرج منها موليير وڤولتير .

جُوتِيه Goethe (١٧٤٩ ١٨٣٢ م) — أديب ألمانى كبير كان كاتبا وشاعرا وروائيا وفيلسوفا وعالما وكان يقول بالحلول وكانت حياته مثارا للعواطف .

دارْوِنْ Darwin (١٨٠٩ — ١٨٨٢م) — فيلسوف انجليزى ، غيّر وجه العلم بأبحاثه ، خالف رأى الأوّلين القائلين بأن كل نوع من المخلوقات له خصائص ثابتة منذ البدء لا تتغير فكل نوع مستقل عن غيره وقال هو بالتحوّل أى أن هذه الخصائص تتغير على تمادى الزمان فتتحوّل الأنواع الى أنواع أخرى جديدة وهكذا وان الأنواع لم تخلق كلها فى زمن معين ولكن على التعاقب خلف بعضها بعضا وشرح علة هذا التغير فقال أنه ناشئ من تأثير البيئة ومن التربية وهو القائل بنظرية «تنازع البقاء وبقاء الصلح» أى أن أنواع الموجودات فى تنازع وعراك شديد من أجل البقاء،

والفوز فى هذا التنازع انما هو للأنواع القوية أما غيرها فهو الى التلاشى والفناء .

دَنْسْ سْكُوتَس Duns Scotus — فيلسوف انجليزى من فلاسفة القرون الوسطى ، ولد نحو سنة ١٢٧٤ الى سنة ١٣٠٨ م اشتهر بمزجه الفلسفة بالدين .

دِيكَارْت Descaret — رياضى وفيلسوف فرنسى يعد مؤسس الفلسفة الحديثة (١٥٩٦ — ١٦٥٠م) تعلم الأدب ولم يقنع به فاشتغل بالفاسفة ولم يرض عن فلسفة أرسطو التى كانت شائعة فى عصره والتى كانت تؤخذ قضايا مسلمة من غير بحث فجاء ديكارت ووضع مبادئ جديدة من أهمها : (١) عدم التسليم بشىء ما لم يفحصه العقل و يتحقق من وجوده فما كان مبنيا على الحدس والتخمين وما كان منشؤه العرف والعادة يجب أن يرفض . (٢) طريقة البحث يجب أن تكون هكذا : نبتدئ بأبسط الأشياء وأسهلها ثم نتوصل منها الى ماهو أكثر تركبا وأغمض فهما حتى نصل الى المقصود ولا يحكم بصحة مقدمة حتى يتحقق منها بالامتحان

وكان يؤمن بالله وبخلود الروح — وقد أثارت تعاليمه رجال الدين فى عصره فحاربوه وله استكشافات فى الطبيعة والرياضة .

دِيمُقْرِيطُس Democritus — فيلسوف يونانى ، ولد سنة ٤٧٠ ق.م ولا تعرف سيرة حياته ولا تصانيفه معرفة دقيقة

ويعرف بالفيلسوف الضاحك لأنه لم يكن يرى إلا ضاحكا يضحكه منظر العالم وأحواله . ويناقضه فى ذلك هرقليطس (أنظر هرقليطس) .

رسكن Ruskin — أديب ومصلح اجتماعى انجليزى (١٨١٩ — ١٩٠٠م) كتب فى الفن وفى الاقتصاد السياسى ويتجلى فى كتبه النبوغ والاخلاص وكان يرى أن الفن وعلم الجمال يجب أن يخضعا للأخلاق .

رنان Renan — إرنست رنان فيلسوف فرنسى (١٨٢٣ — ١٨٩٢م) تربى فى أوّل أمره تربية دينية ودرس الفلسفة واللاهوت وتاريخ الأديان واللغات القديمة وعدل بعد بحثه العلمى عن الانخراط فى سلك رجال الدين وألف كتبا كثيرة النفع منها كتاب « مستقبل العلم » وكتاب « ابن رشد ومبادؤه » وأشهر كتبه « تاريخ الديانة المسيحية » ومنه قسم فى تاريخ المسيح ترجم الى العربية وكان يرى ان المسيح انسان راق لا إله فقام عليه رجال الدين وحرموه من الكنيسة ولعنوا من يقرأ كتبه .

روسو : جان جاك روسو Rousseau — كاتب وفليسوف فرنسى (١٧١٢ — ١٧٧٨م) ربى فى أوّل أمره تربية خاملة ولم يكن له من المال ما يكفيه ووظف كاتبا عند أحد أصحاب الأملاك ثم ظهر نبوغه فى الكتابة والتفكير فانقطع اليهما وألف جملة كتب

مفيدة أشهرها : «أميل» فى التربية رأى فيه ان التربية الصحيحة انما تكون بترك الوالد للطبيعة تربيه وله كتاب « الاعترافات » ذكر فيه تاريخ حياته وله مبادئ فى السياسة والآداب سامية كانت من عوامل الثورة الفرنسية .

رِيْد Reid — توماس ريد فيلسوف انجليزى (١٧١٠ — ١٧٩٦ م) كان أستاذا للفلسفة فى جامعة غلاسكو .

زِينُون Zeno — فيلسوف يونانى (٣٤٢ — ٢٧٠ ق م) مؤسس مذهب الرواقيين كان يعلم أصحابه فى رواق مزخرف فسمى أصحابه بالرواقيين وكانوا يرون ان الغاية ليست هى السعادة ولا تحصيل اللذة بل نيل الفضيلة .

زِينْوفُون Zenophon — مؤرخ يونانى (٤٣٠ — ٣٥٥ق م) .

سبنسر : هِرْبِرْت سْبِنْسَر Spencer — فيلسوف انجليزى (١٨٢٠ — ١٩٠٣ م) حاول أن يضع العلوم كلها فى نظام عام وكانت فلسفته مؤسسة على مذهب النشوء رقى الأبحاث الأخلاقية والاجتماعية والتربية وألف كتبا كثيرة مفيدة فى النفس والأخلاق والاجتماع والتربية والسياسة ويعدّ من أقطاب العلم الحديث .

سبِينُوزا Spinoza — فيلسوف هولاندى(١٦٣٢ — ١٦٧٧م) ولد من أب يهودى برتغالى واضطهده اليهود لما ظهر منه من الريبة فى تعاليم اليهودية فطردوه . درس فلسفة ديكارت ثم وضع

طريقــة جديدة خاصة به ونشر مذهب الحلول وقد حكم فلاسفة القرن السابع عشر بكفره وكتب عدّة مؤلفات فلسفية وسياسية .

سُــقْرَاطْ Socrates فيلســوف يونانى شهير (٤٦٩ — ٣٩٩ ق م) وجه البحث الفلسفى الى الانسان وكان قبله موجها الى العالم والأجرام السماوية ولذلك قيــل أنه استنزل الفلسفة من السماء الى الأرض و يعــدّ سقراط مؤسس علم الأخلاق لأنه أوّل من حَاوَل أن يبنى معاملات النــاس على أساس علمى وكان يدعى أن صوتا داخليا يرافقــه على الدوام و يمنعه من ارتكاب بعض الأعمال،اتهم بأنه يحتقر آلهة اليونان و بافساد الشبان بتعاليمه وحوكم وحكم عليه بالاعدام وسق كأس السم فمات وهو أستاذ أفلاطون .

سَلِي Sully — فيلسوف انجليزى ولد(١٨٤٢)وفى سنة ١٨٩٢ عين أســتاذا للفلسفة فى جامعة لندن ألف كتبا كثيرا قيمة فى علم النفس .

سُوفُوكليز Sophocles — شاعر وروائى من أشهر الروائيين اليونانيين (٤٩٥ — ٤٠٦ ق م) كتب أكثر من مائة كتاب أكثرها روايات تمثيلية .

شافتِسبرِى Shaftesbury — فيلسوف انجليزى فى الأخلاق (١٦٧١—١٧١٣م) كان يعارض نظرية هو بز التى ترجع كل عمل الى الأثرة وحب النفس بنظريته التى يقول فيها أن الانسان مفطور

على حب الناس كما هو مفطور على حب نفسه والفضيلة انما هى بتوازن الغريزتين .

شِلَرْ Schiller — شاعر وروائى ألمانى شهير (١٧٥٩ — ١٨٠٥ م) .

شِلَرْماكر Scheilermacher — فيلسوف لاهوتى ألمانى (١٧٦٨ — ١٨٣٤ م) درس فلسفة أفلاطون وسبينوزا وكانت له أبحاث فى نظرية المعرفة وفى الدين وكان يؤمن بالله وبالنصرانية .

شِلْنج Schelling — فيلسوف ألمانى (١٧٧٥ — ١٨٥٤م) كان أستاذ الفلسفة فى مونيخ وبرلين وكانت آراؤه متأثرة بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة وفلسفة برونو وفى فلسفته ضرب من التصوّف .

شِلى Shelly — شاعر انجليزى (١٧٩٢ — ١٨٢٢م) شعره مملوء بعواطف الحب للانسانية .

شُوبِنْهَور Schopenhauer — فيلسوف ألمانى (١٧٨٨ — ١٨٦٠م) مؤسس فلسفة التشاؤم كان يرى أن هذا العالم شر عالم يمكن أن يكون وأن ما فيه من الآلام تفوق ما فيه من اللذائذ وأن السعادة انما تكون بالزهد وقمع الشهوات وبالحياة الفكرية ، وأن الشىء الأساسى فينا هو الارادة .

شِيشِرون Cicero — خطيب وسياسى رومانى (١٠٧ — ٤٣ق.م) كان له الفضل فى إخراج الفلسفة اليونانية فى ثوب رومانى .

فُجْت Vogt — عالم طبيعى (١٨١٧ — ١٨٩٥) تعلم فى «برن» وعين أستاذا فى جامعة جسن ثم حرم المنصب لأنه كان من دعاة الثورة وكان مادّيا محضا .

فِخْتَه Fichte — فيلسوف ألمانى (١٧٦٢ — ١٨١٤م) كان أستاذا للفلسفة فى جامعة ﭼينا بألمانيا واتهم بالزندقة .

فِخْنَر Fechner — فيلسوف ألمانى (١٨٠١ — ١٨٨٧ م) كان أستاذا للطبيعيات فى ليبزج وجه أكثر جهده فى البحث فى الكهرباء ونظريات اللون ثم ترك البحث فى هذا لمرض اعتراه فى عينه واشتغل بالبحث فى العلاقة بين الفسيولوچيا والسيكولوچيا (علم وظائف الأعضاء والنفس) وكتب بعض كتب فى الاعتقاد والنفس .

فَنْدْت Wundt — فيلسوف ألمانى (١٨٣٢) كتب فى المنطق وعلم وظائف الأعضاء والنفس والأخلاق .

فِنْكِلْمَان Winckelmann — فنان نقاد ألمانى (١٧١٧ — ١٧٦٨ م) كتب فى تاريخ الفن القديم .

ڤُولْتِير Voltaire — فيلسوف وشاعر فرنسى (١٦٩٤ — ١٧٧٨م) كتب روايات كثيرة وله شهرة فائقة فى الأدب والروايات التمثيلية وكان لكتاباته أثر عظيم فى أفكار الأوربيين .

فِيثاغُورِس Pythagoras — فيلسوف يونانى كان فى القرن السادس قبل الميلاد لم يعرف عن حياته إلا القليل وتعاليمه التى نقلت الينا موضع شك ولكن مما لا شك فيه أنه كان يقول بتناسخ الأرواح وينسب اليه القول بأن نهاية الأشياء كلها العَدَد .

كَارْلَيْل Karlyle — توماس كارليل مؤرّخ وأديب انجليزى (١٧٩٥ — ١٨٨١م) ألف تآليف كثيرة نافعة أشهرها تاريخ الثورة الفرنسية وكتاب الأبطال وفيه فصل عن محمد رسول الله كأحسن ما يكتب غربى عن شرقى تغير به رأى الانجليز فى الرسول فبعد أن كان كثير منهم يهجوه جهلا أصبحوا يعترفون بفضله ونبوغه .

كَانْت — عمانويل كانت Immanuel Kant — من أشهر فلاسفة الألمان (١٧٢٤ — ١٨٠٤ م) ومؤسس فلسفة النقد (أنظر ١٩٣) وكان أستاذ الفلسفة فى جامعة كونسبرج وكان يعيش عيشة منظمة أدق نظام حتى كان أهل قريته يضبطون ساعاتهم على خروجه من بيته — مر فى ثلاثة أطوار فكان فى أوّل أمره على مذهب ولف وليبنتز ثم تأثر بمذهب التجربيين الانجليزى ثم انتقل الى الفلسفة النقدية من سنة ١٧٧٠

كُمْت : أوجَستْ كُمْتْ Comte — فيلسوف فرنسى (١٧٩٨ — ١٨٥٧م) مؤسس الفلسفة الوضعية وهذا النوع من الفلسفة يرى ضرورة تنظيم معلومات الانسان عن العالم وعن الانسان وعن

الجمعية وجعلها كلها مجموعا يلائم بعضه بعضا وأنه لا يصح تأسيس علم مّا إلا على المشاهدات الخارجية ولكنت اليـد الطولى على علم الاجتماع وكان غرضه فى الحياة أن يكون مصلحا للفكر ليصلح العمل .

لَامِتْرِى Lamettrie عالم فرنسى فى علم وظائف الأعضاء (١٧٠٩ — ١٧٥١ م) كان ماديا يعدّ الانسان آلة من الآلات وأن النفس وظيفة المخ .

لِسّنْج Lessing — نقاد وروائى ألمـانى (١٧٢٩ — ١٧٨١م) قضى مدّة فى برلين صحفيا ظهرت فيها مقدرته على النقد .

لُوثَرْ : ما رتن لوثر (Martin luther) زعيم المصـلحين الدينيين وهو راهب ألمـانى (١٤٨٣ — ١٥٤٦ م) وكان الاصلاح الذى يدعو اليه هو الرجوع الى الكتاب المقدّس وحده ونبذ تقاليد الكنيسة وما وضعه الآباء من الشروح وأن للانسان الحق فى انتقاد ما تصدره الكنيسة وان كل انسان مسؤل أمام الله وليس للآباء ولا للبابا سلطة العفو عن الذنوب والتطهير من الآثام .

لُوتْز Lotze — فيلسوف ألمـانى (١٨١٧ — ١٨٨١م) كان أستاذا للفلسفة فى ليبزج سنة ١٨٤٢ وصرف جزءا كبيرا من حياته للبحث فى علاقة علم النفس بعلم الحياة وله أبحاث أخلاقية .

لُوك : جون لوك Locke — فيلسوف انجليزى (١٦٣٢ — ١٧٠٤ م) كان متأثرا بتعاليم ديكارت وكانت أبحاثه الفلسفية

متضمنة لاهوتا وسياسة واقتصادا وتربية ألف رسالة سماها «العقل البشرى» كان يرى فيها ان العقل يجب أن يترك حرا لينقد أى شيء ويجب ألا يوضع له أى حدّ بواسطة أية سلطة وكان تجريبيا يرى أن مصدر معلوماتنا انما هو التجربة وبحث فى سلطة الحكومة ورأى ضرورة تنازل الناس عن بعض حريتهم للسلطة العامة وعلى الملك المحافظة على حقوق الناس فاذا لم يحافظ فلا حق له فى الملك .

لَيبِينتْز Leibniz — فيلسوف ألمانى (١٦٤٦ — ١٧١٦ م) درس الفلسفة والرياضيات والقانون ثم اشتغل بالأمور السياسية واخترع الآلة العادة وله مذهب فى الفلسفة وفى تكوّن العالم شرح فى ثنايا الكتاب وكان له فضل على العلماء الذين أتوا بعده بطريقته العلمية وبتوجيه النظر الى علم النفس .

لِيُوسِبُّس Leucippus — كان نحو ٥٠٠ ق م فيلسوف يونانى مؤسس مذهب الجوهر الفرد وممهد السبيل فى ذلك لديمقريطس .

لُيُوكْرِيتْـوسْ كاروس (Lucretius Carus) — شاعر رومانى (٩٩ — ٥٥ ق م) قد يعدّ من أتباع أبيقور .

مَكْس مُلَر Max Muller — لغوى ألمانى انجليزى (١٨١٣ — ١٩٠٠م) كان مستشرقا درس اللغة السنسكريتية وكان أستاذ اللغات الحديثة فى أكسفورد ونشر كتبا كثيرة فى علم اللغة .

مولِشُتْ Moleschott — عالم فى علم وظائف الأعضاء ولد فى هولندا (١٨٢٢ — ١٨٩٣ م) وكان ماديا فى تعاليمه وكتبه .

مُونْتِسْكِيو Montesquieu — مؤرّخ واجتماعى وفيلسوف فرنسى (١٦٨٩ — ١٧٥٥ م) ألف كتابه المشهور فى عظمة الدولة الرومانية وسقوطها .

مِيلْ : چون سْتُوارْتْ ميل John Stuart Mill — فيلسوف انجليزى (١٨٠٦ — ١٨٧٣ م) كان متأثرا بتعاليم هيوم وأوجست كمت ، كتب فى المنطق وفى الاقتصاد السياسى وفى السياسة وكتب رسالة فى الحرية ورسالة فى مذهب المنفعة ألفها سنة ١٨٦٣ وهو من أكبر مؤسسى مذهب المنفعة والداعين اليه .

نِيتْشَه : فردريك نيتشه Neizsche — فيلسوف ألمانى (١٨٤٤ — ١٩٠٠ م) كان أديبا وكاتبا فى الأخلاق وكان يؤمن بمذهب النشوء والارتقاء وكان من آرائه فى الأخلاق أن آراءنا فى الفضائل والواجبات يجب أن تنقح من آن لآخر على حسب تغير الأحوال المحيطة بالناس وقال ان الفضائل النصرانية كالوداعة والتواضع والاحسان قومت بأكثر مما تستحق ولقب الأخلاقية النصرانية بأخلاقية العبيد وقال يجب أن تعوض هذه الأخلاقية بأخلاقية السادة وهذه الأخلاقية العالية يجب أن تكون فوق القانون ، والمثل الأعلى للانسان عنده إنسان له الحرية التامة فى الكفاح ليبقى ، يبحث عن لذته وما به قوته ولا يعرف الشفقة .

نيُوتْن : إسحاق نيوتن Neuton — فيلسوف انجليزى فى الطبيعات (١٦٤٢ — ١٧٢٧م) له استكشافات كثيرة فى الطبيعة أشهرها قانون الجذب العام (١٦٦٥) .

هَتْشِسُون Hutcheson — عالم انجليزى لاهوتى وأخلاقى (١٦٩٤ — ١٧٤٦ م) وكان أستاذ علم الأخلاق فى جامعة جلاسكو وكان متبعا للوك فى كثير من نظرياته ومعارضا لهوبز .

هِجِلْ Hegel — هو چورج وليام فردريك هجل فيلسوف جرمانى (١٧٧٠ — ١٨٣١م) كان من الفلاسفة المثاليين وكان حامل لواء الفلاسفة فى عصره فى ألمانيا .

هَرْتمانْ Hartman — فيلسوف ألمانى (١٨٤٢ — ١٩٠٦) كان ينظر الى العالم بعين السخط ولكنه يرى أنه بالتقدم الاجتماعى ربما نال الناس بعض السعادة .

هِردَرْ Herder — مؤلف ألمانى (١٧٤٤ — ١٨٠٣ م) كان له أثر فى ترقية علم الجمال وكان صديقا لجوتيه .

هِرَقْلِيطُسْ Heraclitus — فيلسوف يونانى ولد فى أفسوس بآسيا الصغرى نبغ حوالى سنة ٥٠٠ ق م ويلقب بالفيلسوف الباكى لأنه كان يبكيه ما يراه من شقاء الناس على العكس من ديمقريطس ويرى النار أساس عنصر الموجودات .

هُلْبَاخْ أو هُلْبَك Holback — هو بارون هلبك فيلسوف فرنسى (١٧٢٣ — ١٧٨٩ م) كان ملحدا وكان يتهم النصرانية بأنها منبع كل مرض .

هَكْسلى Huxley — عالم من أكبر علماء الانجليز فى علم الحياة والحيوان (١٨٢٥ — ١٨٩٥م) وقد كتب فى «نظرية النشوء وعلم الأخلاق» .

هُوبز : توماس هوبز Hobbes — فيلسوف انجليزى (١٥٨٨ — ١٦٧٩ م) اشتهر بأبحاثه السياسية، ونظريته فى السياسة مذكورة فى صفحة ٦٤ من الكتاب وكذلك بحث فى الأخلاق وعدّ أساس الأخلاق المصلحة الشخصية .

هُوجارْث : وِليامْ هوجارث Hogarth — (١٦٩٧ — ١٧٢٤م) يعدّ من أكبر فنانى الانجليزى .

هُوجُو جْرُوتِيَس Hugo Grotius — (١٥٨٢ — ١٦٨٥م) فقيه هولاندى كتب فى القانون الدولى .

هْيُوم : دافيد أوْ دَاود هيوم David Hume — مؤرّخ وفيلسوف انجليزى (١٧١١ ١٧٧٦) وكانت فلسفته (تجريبية) أى أنه كان يقول أن كل معارفنا إنما نحصلها من التجربة أنظر ص ١٦٨ وما بعدها .

هُوم : چون هوم Home — شاعر انجليزى (١٧٢٢ ١٨٠٨م)

هَيبِرْج Heibe g — شاعر دانيمرقى (١٧٩١ ١٨٦٠م).

هِيكل : ارنست هيكل Haeckel (١٨٣٤ —)
عالم ألمانى مشهور له أبحاث هامة فى علم الحياة .

هَيْنِى Heine — شاعر ألمانى يمثل العواطف (١٧٩٩ — ١٨٥٦م) .

والاس Wallace — سائح وطبيعى انجليزى (١٨٢٢ —) صرف حياته فى البحث فى الحيوان والنبات وطبقات الأرض وقرر نظرية الانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح .

ولف Wolff — فيلسوف ورياضى ألمانى (١٦٧٩ ١٧٥٤م) نظم تعاليم ليبنتز وعدّلها .

يوليان الصابى Gulian the apostate — أمبراطور رومانى (٣٣١ الى ٣٦٣م) أعلن حرية التدين وكان هو نفسه يفضل الوثنية على النصرانية .

الاصطلاحات الانجليزية ومقابلها من العربية

Aesthetics علم الجمال
Altruism مذهب الايثار
Analitycal method طريقة التحليل
Anthropology علم الانسان
Art فن
Artist فنان
Atomism مذهب الجوهر الفرد
Autonomous القانون الذاتى
Categorical imperative الامر المطلق
Chaos العماء
Common-sense الذوق الفطرى أو الذوق السليم
Conduct سلوك
Contradiction, law of- قانون التناقض (فى المنطق)
Contrat social نظرية العقد الاجتماعى
Cosmology علم الكون
Criticism مذهب النقد
Cynic School الكلبيون
Cyrenaic School القورينائيون
Custom العرف
Deductive طريقة الاستنتاج
Deism, Rationalism العقليون
Determanism مذهب الجبر
Dogmatism مذهب اليقين
Dualism الاثنينية
Egotism مذهب الاثرة
Eleates الأيليون
End (الغاية فى الأخلاق)
Eudæmonism مذهب السعادة
Empiricism مذهب التجريبين
Epicureanism الابيقوريون
Epistemology نظرية المعرفة
Ethics علم الاخلاق
Evolution مذهب النشوء والارتقاء
Excluded middle, law of قانون الامتناع
Free-will حرية الارادة
Gnosticism القنوسطية أو الادرية
Hedonism مذهب السعادة
Humanism مذهب الانسان
Ideal المثل الاعلى
Idealism مذهب الكمال (فى علم الجمال)
Idealism مذهب المثال (فى نظرية المعرفة)
Identity, law of — قانون الذاتية

Peripatetics المشاءون
Polytheism مذهب الاشراك
Positivism الفلسفة الوضعية
Premises القضايا (فى المنطق)
Psychology علم النفس
Purpose الغرض (فى الأخلاق)
Rationalism العقليون
Realism مذهب الواقع
Reformation الاصلاح الدينى
Renaissance النهضة
Scepticism مذهب الشك
Sensationalism الحاسيون
Sociology علم الاجتماع
Sophists السوفسطائية
Spiritualism الروحانيون
Stoics الرواقيون
Sublime جليل
Summum bunum غاية الغايات (فى الاخلاق)
Theism مذهب المؤلهة
Theologico—cosmoligical problem قضية العالم الدينية
Utilitarianism مذهب المنفعة

Indetermanism مذهب الاختيار
Inductive method مذهب الاستقراء
Intellectualism الذهنيون
Intuitionism مذهب اللقانة
Ludicrous فكه
Materialism مذهب المادية
Megarian School مذهب الميغارية
Metaphysics ما بعد الطبيعة
Monad الذرة الروحية
Monism الواحدية
Monetheism مذهب الموحدين
Moral action عمل أخلاقى
Morality أخلاقية
Moral sense الشعور الأخلاقى
Natural rights الحقوق الطبيعية
New platonism الأفلاطونية الحديثة
Occasionalism مذهب الاتفاقيين
Pantheism مذهب الحلول
Passive, Active قابل وفاعل
Perception الادراك بالحس

(مطبعة دار الكتب المصرية ٧٣٣/١٩٢٨/٢٠٠٠)


Bibliotheca Alexandrina
0617003